@ketab_n
2.1.2015

دنيا كمال

رواية

ميريت

سيجارة سابعة

سيجارة سابعة

رواية

دنيا كمال

ميريت
2012

Twitter: @ketab_n

سيجارة سابعة

Twitter: @ketab_n

سيجارة سابعة
رواية
دنيا كمال

الطبعة الأولى ، 2012
دار ميريت
6 (ب) شارع قصر النيل ، القاهرة
www.darmerit.org (under construction)
merit56@hotmail.com

المدير العام: محمد هاشم

الغلاف: احمد اللباد

رقم الإيداع: 16416 / 2012
الترقيم الدولي: 978-977-357-677-1

Twitter: @ketab_n

أحب المقدمات كثيرًا ولا أستطيع كتابتها .. رُبما في رواية قادمة أستطيع صياغة كلمات كبيرة تفتح نِفس القارئ على القراءة، ولكني الآن لا أمتلك هذه القُدرة فساكتفي بكلمتين من الشُكر ..

إلى العفاريت .. إلى صاحب الكمنجة، وصوتها القادم عبر وسائل الاتصالات، لستم كالآخرين.. فكونوا دائمًا.. العفاريت

إلى وجوهٍ ذهبت ولم أستطع تعقُّبها، وإلى وجوه ظهرت حديثًا وحاولت إبقاءها أكثر وقت مُمكن، إلى وجوه عابرة ولكنها مُهمة .. إلى اللحظات التي نقضي أعمارًا نحاول اقتناصها إلى الطفلة التي لم تقرأني بعد، وإلى اليوم الموعود التي ستقرؤني فيه .. إلى أسرتي البيولوجية، وإلى أُسرتي التي اخترتها بإرادتي .. إلى صديقي الذي اختار أن يذهب عني ولكني أعرف أنه يقف ليُراقبني في الظل من بعيـــد .. إلى الرفاق والونس والأماكن الصغيرة الملونة التي تجمع همومنا ولحظات فرحنا على استحياء.

وأخيرًا .. إليك، وأنت بوجودك الأمل الباقي في عالم أفضل وأكثر براءة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

« ولا يحول بيننا وبين السعادة،
إلا العفاريت الكامنة في أعماقنا »

نجيب محفوظ (أولاد حارتنا)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

1

أجلس مع جدتي على الكنبة الخشبية المتهالكة في بيتها الواسع بالمدينة الصغيرة. كانت جدتي تقطن عمارة ضخمة جدًا، عمارة أثرية وقديمة للغاية تقع على الشارع الرئيسي، شقتها في الدور الخامس، لا يوجد مصعد، وقتئذ، كانت جدتي تحملني وهي تتسلق الدرجات الضخمة. أجلس بجانبها وهي تنقي حبات الأرز من الحصى الأسود، وربما من بعض السوس الذي تسلل إلى الشيكارة التي ابتاعتها من الجمعية. في نفس الغرفة يرقد جدي على جانبه الأيمن، بجواره المذياع، صوت أم كلثوم الذي عرفته طوال حياتي، تتخلله تشوشات الراديو.. فشلت فيما بعد في الاستمتاع بصوت أم كلثوم بغير هذه التشوشات. تركتني أمي لجدتي، لم أكمل عامي الخامس بعد.. لا أتكلم، فقط أسجل التفاصيل التي تحدث حولي في دقة شديدة.. أسجل تفاصيل حبات الأرز في الطبق الأحمر في حِجر جدتي، أكاد أعِد حبات الأرز حبة حبة.. أسجل تفاصيل وجه جدي الرائق وهو يستمع لأم كلثوم تغني «والمساء الذي تهادى إلينا، ثم أصغى والحب

Twitter: @ketab_n

في مقلتينا».. أسجل في ذاكرتي بقوة روقان وجهه وهو يشير لي بيديه كي أذهب وأستلقي في حُضنه، وهو يتمايل على ألحان عبد الوهاب ويراقصني وهو لا يزال نائما على جانبه الأيمن. أتذكر أيضا وجهه الذي يتقلص فجأة وذراعيه اللتين تتراخيان عن جسدي الصغير، جدتي تنهض في سرعة لتتفقده، وهو يحاول أن يطمئنها ويطمئنني.. كطفلة، لم أكن أبكي.. لم أبكِ عندما أغلقت جدتي عيني جدي الشاخصتين وحملتني في هدوء وتسللت السرير بجانبه وشدت الغطاء على ثلاثتنا.. لم أبكِ عندما جاء رجال ونساء في الصباح يرتدون ملابس غامقة وقبيحة يواسون جدتي التي لم تكن تبكي أيضًا بدورها. عندما مات جدي بعد أن أكل المرض كبده، لم أبكِ، فقط بكيت بحرقة عندما حولت جدتي إبرة المذياع من إذاعة أم كلثوم إلى إذاعة القرآن الكريم.. وإن كنت لم أبكِ عندما أتت أمي مرتدية السواد من سفرتها الخليجية وهي تبكي أباها في حرارة.

مات جدي.. واتشحت جدتي بالسواد منذ هذا اليوم حتى ماتت بعده بخمسة عشر عامًا، امتلأ بيتها الواسع بالحزن، وظلت صورة جدي وجدتي على الحائط، أراهما وأرى أنور وجدي وليلى مُراد في التلفاز فيمتلئ رأسي بالحيرة، ولا أعرف الفارق بينهما أبدا. جدتي تشبه أمينة رزق وليلى مراد معًا.. يبدو هذا تناقضًا.. هي ليلى مراد بفمها الواسع وقصة شعرها التي تتجه في عكس اتجاه الجاذبية، وهي في صرامة وقوة أمينة رزق وفي عقصتها للمناديل القماش على رأسها. لَم تُخرجني جدتي من البيت إلا لمامًا، لم أعرف عن العالم سوى الراديو الأسود المليء ببقع الصدأ،

Twitter: @ketab_n

وغرفة جدي التي تقبع في آخر المنزل والتي قالت جدتي إنها تمتلئ بالعفاريت، وإنني لا يجب أن أجلس بها بمفردي، الغرفة ساحرة وبها التلفاز الخشبي القديم المغطى بملاءة السرير البيضاء، والكتب التي كانت تجلبها لي جدتي لأتعلم القراءة.. لم أعرف شيئًا عن العالم الخارجي وكانت أمي تتندر أنها عندما بدأت تأخذني للشارع كنت أقف أمام أعمدة الإنارة لأتكلم معها وأسألها عن أسمائها.. تفتح التلفاز فأدخل في مونولوج طويل مع المذيع وأدبدب في الأرض عندما لا يرُد عليّ، لم أعرف سوى وجه جدي الضاحك ولم أعرف عن هذا العالم سوى غنوة أم كلثوم «بقي يقوللي وأنا أقوله وخلصنا الكلام كله».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

2

أسجل كل التفاصيل، وأتذكر أمي وهي تجلس مع أختها في غرفة جدي، يضعانني في المنتصف بينهما، لا وجود لي إطلاقا، يتكلمان عن أشياء، عن أشخاص، أقارب ربما؟ يحكيان عن رجال، زواجهما؟ ربما؟ يتحدثان ويبكيان أحيانًا.. وجدتي تأتي في لحظة ما، تنتزعني بلا كلام، تأخذني في رفق إلى الغرفة الأخرى.. تضعني في ملابس الخروج، شعري طويل وبُنّي، تسرحه لي في بعض من العنف، وتضع "توكتين" ورديتين على الجانبين، القُصة مرصوصة في عناية، تلبسني بلوزة صيفية جميلة، وردي في أزرق، وشورت أزرق من القطن. أشعُر ببعض قطرات المياه تتساقط على رأسي، ألتفت إلى جدتي لأجد وجهها كما هو، حادًا بلا تعبير سوى بعض الدموع التي تخفيها سريعًا فور التفاتتي. تشُدني من ذراعي ونذهب معًا إلى المصور، تخبرني أنني يجب أن أبتسم، فالمصور سيأخذ لي صورة الآن ولا بد أن يرى أسناني في ابتسامة واسعة، أحاول وأحاول.. وينشق وجهي في النهاية عن ابتسامة ضيقة أقرب إلى الارتياب.. ولا تظهر أسناني في الصورة.. تأخذني جدتي ونعود إلى البيت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

3

أم كلثوم تغني من جديد، بعد أشهر من إذاعة القرآن الكريم، أم كلثوم تعود للغناء.. أشهر لا أرى سوى اللون الأسود. انتقلت جدتي بطبق الأرز الكبير إلى المطبخ، لم تعد تنقيه على أريكتها الخشبية، وانتقلت بالطبع معها.. كنت أرقبها في براءة ولا أتكلم إطلاقًا، وهي تفعل كل ما تفعله في تؤده وهدوء وفنجان القهوة على عين البوتاجاز الصغيرة.

تجلب حبات الثوم والبصل من البلكونة الصغيرة الملحقة بالمطبخ، تقشر الثوم وتخرط البصل في حرفنة وعناية.. تنسال الدموع من عيني وهي تطالبني بالخروج من المطبخ حتى لا تحرقني عيناي وأنا أرفض في عناد.

تضع كل هذا في صينية البطاطس الأنيقة، الألوان في الصينية تبهرني.. تنتهي من كل شيء وتضع الصينية في الفرن.. تغسل الدجاجة بالدقيق والخل والملح وتضع إناء المياه إلى أن أرى

Twitter: @ketab_n

"البقاليل" تظهر على السطح فاشير لها أن المياه تغلي.. تبتسم أضيق ابتسامة في العالم وتضع الدجاجة على النار.. دقائق وتنتزعها وترصها على سطح صينية البطاطس التي تخرجها من الفرن بيديها العاريتين دون منشفة أو فوطة.. أصابع جدتي متغضنة وعجوز، ربما تكون أعصابها قد ماتت منذ زمن، أو ربما هي تستمتع بألم سخونة الصينية على أصابعها المتجعدة.

تنتهي من صينية البطاطس التي أصبحت الآن بالفراخ، وتضع "الشياطة" على النار.. والشياطة هي لمن لا يعلم قطعة نحاسية مستديرة توضع تحت أواني الطبخ على البوتاجاز حتى لا يحترق الطعام.. تضع الشياطة وآنية الأرز فوقها.. هذا بعد أن نثرت بعض حبات المستكة على الشعرية وهي تحمرها في السمن.. أسمع طشة الأرز المبتل على الشعرية الساخنة وأشم الرائحة الشهية للطعام فورًا.

أجلس على الكرسي، يدي على خدي، أنظر إلى السقف في انتظار اللحظة الموعودة.. جدتي تنظر إليّ وابتسامة ضيقة تشق وجهها، "حتموتي عالقهوة، صح؟"، ألتفت في لهفة.. تنهض وتضع كنكة القهوة على عين البوتاجاز، تصب قهوتها في فنجان أبيض كبير، وتصب بضع قطرات من القهوة في فنجان خزفي صغير، أعتقد أنه كان في يوم ما جزءًا من لعبة أطفال.. أرتشف قطرات القهوة في سعادة.. نعم، أنا طفلة تشرب القهوة.. طفلة في الخامسة تجلس في مطبخ واسع أمام طبق الأرز الأحمر وأمامي فنجان القهوة.. أرتشف قطراته وأنظر إلى السقف وأتامل وأنتظر اللحظة

Twitter: @ketab_n

الموعودة التي سأرى فيها كيف تحولت الألوان من الفاتح إلى الغامق.. تأتي اللحظة سريعًا.. كل شيء يبدو رائعًا.. صينية البطاطس احمرّ وجهها، الدجاجة على وجه الصينية ناضجة وجميلة.. الأرز بداخل الحلة.. الأطباق والصينية الواسعة أمامنا الآن.. نضعهما ونعود للجلوس في صبر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

4

كان لدي دومًا مشكلة في البكاء.. أنا لا أبكي، لم أبكِ وأنا طفلة، كنت دوما مترقبة ومنتظرة ومرتابة.. لم أبك.. وعندما كبرت قليلًا، فهمت أن البكاء ليس شيئًا سهلًا.. أخذني أبي إلى حديقة.. جميلة واسعة، بها بحيرة كبيرة، وطيور.. طيور بيضاء غير متسخة تسبح.. وأنا أمسك بيد أبي، لا أتقافز كالأطفال، ولكن كل طموحي هو أن أقترب قدر الإمكان من الأوز والبط بالبحيرة.. أجذبه من يده وهو يضحك بصوت عالٍ، "عايزة إيه يا بت إنتي، عايزة تأكِلي الوزة، طيب طيب بالراحة"، نذهب سويًا إلى البحيرة ويعطيني الحارس بعض كسرات الخبز لألقيها للطيور في البحيرة.. ولكنني لا أريد الإلقاء بالكسرات في البحيرة، أريد أن أضع الخبز في فم الأوزة، وأبي يضحك، ويحملني من خصري ليتدلى نصفي الأعلى تجاه الأوزة التي تختطف من أصابعي الصغيرة الكسرة.. أتجهم لوهلة، ثم أرتمي في حضن أبي الذي يأخذني لنأكل الأيس كريم.. نجلس سويًا على طاولة من الحديد.. وجهي ملوث بالأيس كريم، وهو يقرأ الجريدة ويختلس

Twitter: @ketab_n

لي النظر من خلف الصفحات ومن خلف زجاج النظارة الطبية التي يرتديها.. يسألني بابتسامة كبيرة "مبسوطة؟" أهز رأسي في رضا، وأنزل من مقعدي لألطخ وجهه بقبلة مليئة بالأيس كريم.

Twitter: @ketab_n

5

عندما بدأنا الحياة في شقتنا بمدينة نصر كنت لا أزال طفلة لا تتجاوز السبعة أعوام، كانت أمي قد تركتني في بلدة جدتي الصغيرة وذهبت إلى الخليج، لم يكن لدينا شقة، ولم يكن لأبي دخل ثابت، واستمانت أمي من أجل الحصول على عقد عمل بالخليج. أخذت أختي معها وتركتني في المدينة الصغيرة رضيعة لا أتجاوز بضعة أشهر، لم يكن أبي موافقًا، ولكن إرادة أمي تغلب أي شيء في الحياة.. كانت جدتي ترعاني وترعى زوجها المريض، أتذكر عندما كبرت قليلًا الراديو الأسود وهي تضغط بيدها الصغيرة على زر التشغيل به، وتحمل في يدها الأخرى طبق الخضار المهروس الذي تتحايل عليَّ كي أتناوله، كان زر تشغيل الراديو هو الحل الوحيد حتى أوافق على تناول طعامي.. صوت أم كلثوم الغويط يتغلب على كل ألاعيب الكبار في التحايل على عِناد الأطفال، صوتها وهي تقول - بالفعل أتذكره حتى اليوم - فكَّروني إزاي هو أنا نسيتك؟ - يتفوق على تعبيرات وجه جدي المريض الذي يكاد يفقأ عينيه حتى أفتح فمي للطعام

Twitter: @ketab_n

لاحقًا، وعندما عاد أبي ليأخذني من بيت جدتي، استخدم حيلة جديدة وهي ارتجال القصص التي لا تنتهي إلا مع انتهاء الطبق، قصص لا تنتهي أبدًا، عن حيوانات خيالية وبوابات ضخمة تقود لعوالم ساحرة، قصص عن كائنات ملونة في مجرات وكواكب مختلفة، وعن أطفال، طفل اسمه جلال وطفلة اسمها جليلة، قصص عن حيوانات تتمرد على ملوك وقوانين الغابة، قصص ساحرة يقصها أبي "الحكواتي" بلا كلل أو ملل حتى أفتح فمي للطعام.

وعندما استردني أبي من بيت جدتي، وبدأت أذهب إلى مدرستي بمصر الجديدة، كنت بدأت بالفعل الإحساس بالاغتراب، يقولون إن جميع الأطفال ينتابهم هذا الإحساس، جميع الأطفال لديهم إحساس قوي بالاغتراب ويعيشون داخل عوالمهم الخاصة. أما أنا فكنت أكره المدرسة، أكره الدراسة وأكره جميع المدرسات والمدرسين والراهبات القائمات على تربيتنا، لم أستسغ أبدًا الدروس والحصص والأرقام والكلمات التي يجبروننا على كتابتها وتسميعها في الحصص. أعتقد أن هذا هو الوقت الذي بدأت أطور فيه من نظراتي النارية وبدأ الدرع العدواني لديّ يتكون تدريجيًا. كنت مشهورة بطريقتي العدوانية في التعامل ولم أكن أتكلم إلا قليلا وكانوا دومًا يقارنونني بقريباتي وبنات عمّاتي اللاتي كُنّ مثالاً في الأدب ودماثة الخلق "مش عارفة مطلعتش زي قرايبها ليه؟!" تقول أمي هذه الجملة للجميع في حسرة وغضب مستتر.

Twitter: @ketab_n

وفي يوم مُعين من كل عام، تنتاب المدرسة حالة من التوتر والتحضيرات، المدرسة تجمع التبرعات قبل هذا اليوم بأسابيع، هو يوم "الخير"، تأتي فيه طالبات مدارس مصر الجديدة إلى مدرستي من أجل الاحتفال بيوم اليتيم، تستضيف المدرسة عدة ملاجئ وهي بدورها تحضر الأيتام ليقضوا يومًا "جميلًا" في المدرسة، هو حدث ضخم تقف فيه المدرسة بأكملها على قدم وساق، وتظل المدرسات يلقننا الخطب والأشعار التي سنلقيها لإخوتنا الأيتام، ولمدير المنطقة التعليمية في هذا اليوم، وأنا أبتعد عن كل هذا العبث وأقبع في ركن حديقة الأطفال، هناك ركن صغير ما بين سكن الراهبات والحديقة، لا يراه أحد سوى "الدادة" الصامتة، أجلس هناك وفي يدي كتاب، أجمع "الجونلة الكاروهات" بين فخذي وأجلس على الحشائش حيث لا يوجد أحد لأقرأ. تمر "الدادة" الصامتة لتراني فتبتسم وتضع إصبعها على فمها في إشارة مُطمئِنة أنها لن تشي بي، يمر اليوم وأغفو على الأرض حتى أفيق على صوت التلاميذ بالخارج فألملم أشيائي القليلة وأختفي في زحام الحوش.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

6

عندما ذهبنا معًا إلى ذلك الميدان، كان يتكئ على ذراعي.. مشينا ومشينا.. مسيرات عدة، أسمع صوت لهاثه وأحثه على المشي حتى نلحق بالمسيرة وحتى لا يلحقنا عساكر الأمن المتناثرون في كل مكان.. نمشي في سرعة متوسطة.. رفاقي في المقدمة، لا أستطيع الذهاب إليهم، لا أريد أن أترك ذراعه ..هو في حالة من الذهول، يقول لي بصوت خفيض: "هي ثورة ولا إيه؟ حنشوف الثورة يا ولاد قبل ما نموت"، أقول له: "يظهر كده، لو تعبت قوللي ممكن أوديك البيت وأرجع"، ينظر لي بابتسامة: "إنتي مجنونة، دانا مستني أشوف اليوم ده من خمسين سنة، أروح فين، أنا مش حمشي وإنتي حتفضلي معايا"، أبتسم وأكمل السير في شوارع وسط المدينة التي تقودنا حتما إلى حيث المعركة.

كانت التظاهرات تملأ القاهرة، لم يكن أحد يتوقع أبدًا أن تنضم هذه الأعداد إلى الشارع.. رأيت وجوهًا من جميع الأصناف والألوان، رأيت مع أبي وجوهًا شابة، طبقة وسطى؟ ربما. فتيات

Twitter: @ketab_n

يرتدين أغطية الرأس الملونة ويبدو على وجوههن الغضب، رأينا نساء بلا غطاء للرأس، نساء يهتفن بصوت عال ورفيع يُضحكني قليلا.. فأنا أخجل من رفع صوتي في المظاهرات.. صوتي رفيع ولن يقنع أحدًا وأفضل أن أترك الهتاف للرجال ذوي الصوت الأجش..

أتشبث بيد أبي.. يهمس في أذني: "هي الناس دي كلها جت منين؟" أقول له في تردد: "تقريبًا من عالفيسبوك.. بص يا بابا، معرفش بس أهم نزلوا، ربنا يستر بقى" يقول في ثقة: "حيسترها يا هبلة، ده مش حيسترها غير دلوقت" أنظر له غير مصدقة لمدى الثقة التي يتكلم بها.. نكمل السير في الشوارع الضيقة.. بدأت أشعر ببعض الخطر.. الأعداد تتزايد وتتجه إلى وزارة الداخلية بوسط المدينة، لا أريد أن أذهب إلى هناك.. بالتأكيد سيكون الموقف متأزمًا.. أقول لأبي بنبرة هادئة - قال يعني أنا مش خايفة -: "ما تيجي نروح نشرب قهوة لغاية ما الدنيا تهدى شوية؟" ينظر لي في حدة: "إنتي عبيطة؟ حنسيب الدنيا كده ونمشي؟ قهوة إيه وزفت إيه؟ ما إنتي عارفة إني مبشربش قهوة عشان الضغط" الهتافات من حولنا تتعالى، أقول في صوت عال حتى يسمعني: "يا سيدي إشرب شاي، ينسون، أهو نشرب أي حاجة وخلاص" يقول في ضيق: "بقولك إيه أنا عايز أكمل، لو تعبت حقولك ونبقى نقعد نريح في أي حتة" أستسلم إلى المسيرة التي تقودنا إلى وزارة الداخلية.. تتعالى دقات قلبي، مرعوبة وهناك شعور يطفح على قلبي بالفرحة التي لا أستطيع التعبير عنها.. أنا أمشي مع أبي في تظاهرة يقودها بشر كثيرون.. آلاف، ربما؟ لا أعرف ولكن هم كثيرون يتجهون إلى عشرات العساكر الذين يقفون في صفوف مرتبة.. متأهبون لمواجهة المجهول.

Twitter: @ketab_n

7

منذ سنوات أخذني أبي إلى ميدان طلعت حرب، كان هناك رجل شعره أبيض، ورجل آخر يحمله شاب في العشرينيات.. الرجل المحمول على الأعناق كان يهتف في مرارة.. أتذكر هذا اليوم جيدًا.. لم يكن يهتف في حماس، كان صوته مريرًا.. يهتف ضد أشخاص بعينهم.. وأبي يمسك بكفي الصغير ويرفع بيده في علامة النصر.. كانت عيناه دامعتين.. لم يكن هناك الكثير من المتظاهرين.. عشرون شخصا، ربما ثلاثون.. يقفون عند مكتبة مدبولي.. الرجل ذو الشعر الأبيض يحاول بث الحماس في الناس، يتكلم في حدة وغضب مع الجميع.. لم تمر دقائق حتى جاء العسكر.. سبعة أو ثمانية صفوف من العساكر أحاطوا بالمجموعة الموجودة.. بدأ التوتر.. كف أبي يتشبث بيدي في قوة: "خايفة؟" رددت في ثقة: "من إيه؟ أنا ما بخافش وإنت عارف" قال بابتسامة: "آه بس عشان تبقي عارفة عادي إنك تخافي، المهم إنك ما تخافيش وأنا معاكي" تشعلقت في ذراعه: "قلتلك مش خايفة" قال: "طيب ما تيجي نمشي، تعالي نروح

Twitter: @ketab_n

ناكل آيس كريم في جروبي وبعدين نروح البيت" قلت في عناد:
"بس أنا مش عايزة أمشي، والنبي خلينا شوية" قال في حزم:
"خلاص حنستنى ربع ساعة وبعدين نمشي عشان الضرب
حيبتدي" لم أفهم وقتها لماذا سيبدأ الضرب؟ ومن سيضرب من؟
لا يوجد ما يستدعي أي ضرب.. الرجل المحمول على عنق الشاب
الصغير يبعث في نفسي حزنًا لا أعرف سببه، هو أيضًا حزين
ولكنه يهتف، صوته عال وأجش، يكاد حلقه ينجرح من الهتاف..
تخيلت نفسي وقتها مكانه محمولة على عنق أحد الموجودين،
أهتف بصوتي الرفيع المضحك الذي لا يقنع أحدًا ضد الأسماء
التي يرددونها.. بالتأكيد هم ناس "مش تمام" أو كما يقول أبي
"ولاد قحبة" كنت أخجل عندما يقول أبي كلمة بذيئة.. وأدركت
بعد سنوات أن البذاءة لا تكفي لوصف "الناس اللي مش تمام"
ننتظر حتى يستشعر أبي بخبرته الكونية - وهو الإله الحكيم في
حياتي الصغيرة - أن "الضرب حيبدأ" يجرني من كفي ونمشي
في اتجاه جروبي.

نجلس على الطاولة المعدنية.. قديمة وبها بقع صدأ، أرى
"وشوش" تتجمهر عند زجاج المحل، يحاولون رؤية ما يحدث
بالخارج، يقفون عند الباب وتتعالى همساتهم.. أبي يطلب آيس
كريم بالمستكة لي وقهوة "مظبوط" له.. أنا لست خائفة.. عمري
عشر سنوات كاملة، لا يستطيع أن يخيفني أحد، ثم إنني أمسك
بكف أبي الكبير طوال الوقت.. كيف أخاف؟ أبي لا ينظر من
الزجاج، هو يعرف بالضبط ما يحدث بالخارج، كل بضع دقائق
نرى شخصًا ما يجري باتجاه إحدى البنايات المحيطة.. نسمع

Twitter: @ketab_n

أصواتًا مكتومة.. ينقبض قلبي.. أسأل في توجس: "بابا هو الضرب بدأ" يقول: "آه بدأ، بس ما تخافيش، محدش حيعملنا حاجة" أقول وأنا أدبدب بيدي على المنضدة: "قلت لك مش خايفة بقى، بس عايزة أعرف مين اللي بيضرب؟ والناس دي عملت إيه" يقول بذات الابتسامة الهادئة: "يا حبيبتي العساكر اللي بره دول بيضربوا الناس اللي بتزعق، والناس اللي بتزعق مش عاجبها إن فيه ناس حرامية في البلد.. ومش عاجبها إنهم لما بيقولوا إن الناس الحرامية دول حرامية، بيتضربوا زي ما إنتي شايفة كده" قلت في استغراب: "طب ما يبلغوا البوليس؟ البوليس يتصرف مع الحرامية" قال في شفقة: "البوليس هو اللي بيضربهم، إنتي مش شايفة العساكر اللي بره دول بيعملوا إيه؟ العساكر دول بيشتغلوا مع الحرامية، والناس دي عايزين يغيروا كل الحاجات الوحشة اللي موجودة" تجهمت، وبدأت أشعر بخطورة الموقف.. العساكر زفت والحرامية زفت والناس بتضِرب عشان هم مش كتير.. كانت هذه هي النتيجة التي توصلت إليها وأنا "ألغوص" وجهي بالآيس كريم على كرسي جروبي، والمعركة الصغيرة تدور بالخارج.. لم أكن خائفة.. وكان أبي يمسك بيدي في قوة.

نركب سيارتنا الـ 128 الزرقاء ونعتلي الكوبري الكبير.. أبي يتحدث طوال الوقت.. أحيانا "أتلخبط"، لست متأكدة هل يكلمني أم هو يكلم نفسه كما يفعل طوال حياته؟ يحكي لي عن السجن "في الستينيات لما اتمسكت في اللمة الكبيرة، ودّونا الواحات.. الواحات ده بقى سجن كبير في حتة اسمها برضه الواحات.. اتبهدلنا.. كنا بنتضرب كتير جدا.. لما نروَّح حبقى أفرجك على

Twitter: @ketab_n

علامة كده لسه في رجلي.. الكرباج دا كان أقل حاجة.. كانوا بيضربونا كُلِنا، الشمال واليمين - عرفت في ما بعد أنه كان يقصد التيار اليميني والتيار اليساري - وإحنا أصلاً مش بنطيق بعض، بس كانوا بيصعبوا علينا، يعني.. بيصعبوا عليّا.. وكان بيصعب عليّا نفسي كمان - يا ابن الهبلة حد يسوق كده" كانت آخر جملة موجهة للسائق الأحمق الذي زنقنا بجانب الرصيف بلا مبرر.. أستمع وأنا بين الترقب والاستمتاع والغضب، ولا أفكر سوى في أن هناك غرفة كبيرة وهناك رجل غليظ يصِف الناس الطيبين على الناحيتين - الشمال واليمين كما قال أبي - وينهال عليهم ضربًا بالكرباج الذي كان موازيه البصري في عقلي خرطومًا أحمر سميكًا موجودًا في حمام بيتنا تستخدمه أمي كثيرًا في أغراض مماثلة معي عندما أفعل أشياءً لا تعجبها.

"بابا كمل إيه تاني حصل؟" قال وهو ينظر في المرآة الجانبية للسيارة: "مفيش يا ستي، من سجن لسجن بقى لما طلع عين اللي جابونا، بس عارفة كانت أيام حلوة، أنا كتبت كتير في السجن، كتبت قصص وحواديت، لسه عندي لحد دلوقت.. وكان معايا صحابي، صحابي كلهم، وبقى عندي صحاب جداد فضلوا صحابي لحد النهارده.. يعني لولا بس إنه سجن وإننا اتضربنا كتير كان زماني قلت يا ريت الأيام دي ما خلصت" أستمع إلى أبي وأنا أحاول أن أفهم كلماته عن السجن وعن التعذيب وعن الأصدقاء والتفاصيل الكثيرة.. أستمع إليه وأنا أتخيل أنه كان من الممكن أن يأخذنا هؤلاء العساكر إلى سجن كبير تتكرر فيه قصص أبي الساحرة فيتكون لدي إحساس بالرهبة والخوف..

Twitter: @ketab_n

أبي قلبه معتل ولن يتحمل الآن أن يخبطه أحد هؤلاء الأوباش بالخرطوم الأحمر.. أما أنا فقد اعتدت الخرطوم وأستطيع تحمل أي شيء.. خذوني أيها الغلاظ واتركوا أبي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

8

قابلت علي في المرة الأولى في مقهى ضخم مزدحم، نحيف للغاية وحزين. كان هناك من يرغي في أذني بشكل مستمر ومثير للأعصاب، فلم أستطع التركيز في عينيه وقتها. ولكني فهمت في لحظة قفشتها جيدًا حينئذ أن عينيه هي اكتشاف السنة. كان المقهى مزدحمًا وسخيفًا وكان هناك الكثير من الأصوات، وأنا أكره الزحام وأكره الأصوات غير المتجانسة ولذا كنت متوترة جدًّا، استرقت بعض النظرات الخاطفة الفضولية إلى عَلي ولم نتكلم إطلاقًا. تقابلنا بعدها في شقتي الصغيرة، أربعة عشر شخصًا في شقتي الصغيرة التي تكفي بالكاد أربعة أشخاص، في مغرب رمضاني مُبهج جاءوا ليتناولوا الإفطار، وجاء معهم علي. التقيته أخيرًا عن قرب، ورأيت حدقتي عينيه بلونهما الواحد، لا أستطيع أبدًا أن أصف شكل حدقتي عينيه، ولكني رأيت فيهما صندوق الدنيا، ساعة كاملة والجميع يرغي في صخب مثير للأعصاب وأنا أرى صندوق الدنيا الملوَّن.

Twitter: @ketab_n

لم أعرف أبدًا لماذا تطل هذه النظرة المنبهرة من عينيه؟ هل يرى العالم بكرًا؟ هل يرى الشخوص المشوهة كأنهم أطفال يرون الشارع لأول مرة، ويرغبون في لمس كل شيء بأصابعهم الصغيرة؟ هل يرى السماء صافية؟ هل يرى الشتاء كشتاء أفلام "أليس" في بلاد العجائب؟ هل يرى الأشجار خضراء جدًا وأوراقها صفراء جدًا وزهورها تصل لمنتهى الألوان؟ هل يرى أرانب وسناجب يلمع جلدها وتتقافز في فرح وأمان؟ هل يرى عصافير ملونة وحمائم تطير في سلام دون أن يصطادها صياد بارع؟ هل يرانا خلف الدخان والسواد والتلوث وصغائر الأمور التي تقتل لمعة أعيننا؟ هل يرى أعيننا - نحن المشوهين بالدماء والانهزامات والثورات المنقوصة - بريئة نقية؟

كيف يرى العالم وكيف يرانا؟ كيف تحمل عيناه كل هذه البراءة والانبهار والسلام؟

الغريبة أنه عندما يبتسم، عندما يضحك، وعندما يتجهم وجهه.. لا تظهر أي خطوط في محيط عينيه، فتظل صافية، رائقة، لا مجال لاختلال التعبير البريء الذي ينطلق منهما، حتى عندما تذهب عيناه إلى فضاء رحب واسع في تأملات بعيدة أو ذكريات معينة أو حتى أفكار مؤلمة أحيانًا، تظل نفس النظرة، نفس الصفاء الأشبه بموجة حانية على شطآن خالية من الرمال.

عرفت في لحظة أخرى مقفوشة ورائقة أنني سأحب علي، وأن قدري سيرتبط به ، ودعم هذا الاستنتاج أنني غفوت بعد أيام

Twitter: @ketab_n

من هذا اليوم لأفيق على يده ممسكة بمعصمي في قوة، نائم ومتشعلق في يدي وأنفاسه في وجهي. كان الحب في البداية خائفًا، مترددًا، يأتي مرة ويعدو بعيدًا أحيانًا، أراه ولا أراه، والوقت يمضي معه جميلاً، كل تشككات الحب تأتي وتذهب في كل اللحظات. نتقابل قليلاً لنقفش اللحظات سويا. نصمت معظم الوقت، وأقف أنا في وجه نافذتي الكبيرة ليأتي هو من خلفي، يحتضنني في قوة ويريح رأسه على كتفي في لحظة يقف فيها الوقت مبهورًا وخاشعًا. لم أستطع قفش كل لحظاتي مع علي، هي السعادة المنقوصة، سعادة القُبلة الأولى وخفقات القلب المضطربة والفراشات الوردية التي تحلق في سماواتنا. ينظر لي وصندوق الدنيا يتوسط وجهه فيغفل قلبي خفقة، أستقبله على باب غرفتي الضيقة ليحتضنني العالم، وأودعه في تعاسة لألقاه بعد أيام فألقى أكوانًا ومجرات موازية وأغرق في "ترانس" من النشوى.. علي هو الحياة، عليّ هو كل ما أود أن أفتح عيني يوميًا لأراه بجانبي.. علي هو الدرب والطريق الذي سأسلكه حتى أغلق عينيّ في راحة وأعبر إلى العالم الآخر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

9

فقط أحب المشي على الشواطئ.. لا أحب نزول البحر بمياهه المالحة وقناديله وأسماكه الغامضة ودواماته المخيفة.. لا أحب نزول البحر أبدًا.. ولا أحب المشي أيضًا، فأنا كسولة وثقيلة والرقود داخل الكنبة هو منتهى المتعة بالنسبة لي.. ولكني أحب أن أمشي بجانب أي مسطح مائي.. في سنوات مراهقتي الأولى، كنت أذهب لأمشي بجانب بيت جدتي على شاطئ القنال.. الجو بارد والشوارع لا يوجد بها زحام.. ومياه القنال غامقة وليست جميلة كمياه البحر.. وأنا أمشي وأمشي حتى أصل لقاعدة التمثال الكبيرة، أجلس على الأرض والقنال أمامي بسفنه الضخمة، أتسلى بِعَدّ السفن المارة.. سفن كبيرة تحمل تانكات الزيت والبنزين، أعِدُّها وأشُم رائحتها وأرقب كل من يأتي ويذهب من حولي.. رجال ونساء وشباب صغير يمشي على استحياء كعادة كل الشواطئ.. أطفال يلعبون تحت قاعدة التمثال ويتحركون في صخب لا أسمعه إطلاقًا.. يأتيني هذا الشعور عندما أجد المياه حولي.. أتخيل نفسي عائمة على سطح

Twitter: @ketab_n

المياه الثقيلة، وأحيانًا أخرى أتخيل نفسي أغوص باستسلام إلى الأعماق. تأتيني دائمًا أحلام عن الموت.. لست متأكدة إن كانت أحلامًا أم رؤى، ولكني أرى نفسي دائمًا ميتة بأشكال وطرق مختلفة، فتارة أراني أفتح باب سيارة مسرعة وأتدحرج على الأسفلت حتى يصب الدم من كل فتحات جسدي، وتارة أخرى أراني أقف على حافة الشرفة - وهي الطريقة الأكثر إكليشيهية - أمشي على الحيز الضيق وظهري إلى الحائط الأسمنتي ثم أدع قدمي تفلتان في هدوء وبلا صخب القفز، أراني كثيرًا ممسكة بسكين المطبخ الكبير وأراه مغروزًا في معصمي حتى تنبثق الدماء من يدي كالنافورة.. أراني أموت كل يوم، الموت هو الحلم الأوحد الذي لا يفارقني منذ زمن.. أقراص مخدرة كثيرة، حبل حول الرقبة.. الطرق كثيرة وأراني في جميع سيناريوهات الموت حاضرة وموجودة وأُنفذها ببراعة شديدة.

لم أدرِ وأنا جالسة تحت قاعدة التمثال المُهم على شاطئ القنال أنني سأحترف هذه الأفكار بعد سنوات حدث فيها الكثير.. لم أدرِ أنني سأكون في ذات النقطة وأنا جالسة في شقتي الصغيرة - أصغر شقة في العالم - أتأمل السقف وأدخن تبغي الكثير.. شقتي بلا إضاءة تقريبا، صغيرة، لا يوجد بها غرف.. مساحة من الأمتار المحدودة.. كنبة صغيرة ولمبتان يبعثان الضوء الأصفر الخافت.. كرسي وثير كبير يمكن النوم عليه بسهولة.. وحائط مبكى.. فعلى الرغم من عدم وجود غرفة مغلقة بشقتي، إلا أن لدي حمامًا كبيرًا يصلُح حائط مبكى لسُكان المحروسة أجمعين.. أستقبل الكثيرين في شقتي هذه.. أستقبل الأصدقاء وزملاء

Twitter: @ketab_n

العمل.. أستقبل أصدقاء الأصدقاء ويبيت عندي العشرات في طرح غامض لا يستطيع تفسيره أحد.. كيف يستطيع هذا المكان الضيق استيعاب كل هذا عندما جاء أبي لشقتي لأول مرة، كنت قد نظفتها جيدًا وأعددت وليمة من الطعام.. وقفت لمدة يومين أطبخ كل الأصناف التي يحبها.. سلقت الأرز بالشعرية الذي يحبه بشوربة الدجاج، سلقت الفرخة بعد أن تبلتها جيدًا بكل أنواع التوابل ما عدا الفلفل الأسود الذي يسبب له الحساسية.. وضعت بصلة كبيرة في الإناء الفخاري وقطعت شرائح الجزر والبازلاء الطازجة والكوسة والبطاطس ورششت عليها قطرات زيت الزيتون وأدخلتها الفرن إلى أن احمر وجهها.. هذه أكلات لا تسبب انسداد الشرايين ولا تضر بعضلة قلب أبي الضعيفة.. قطعت السلطة قطعًا كبيرة - أبي لا يحب السلطة المقطعة قطعًا صغيرة ويرى أنها بلا فائدة صحية - وهو أيضًا يحب النعناع على السلطة.. أعددت له عصير البرتقال، حضَّرت كل شيء ووضعت عبد الوهاب - مطربه المفضل - في قائمة الأغاني على الكمبيوتر الحديث وجلست أنتظره.

ويحكي لي أبي ونحن نأكل عن قصة زواجه بأمي.. أداعبه دومًا بأن "الجوازة دي كانت غلطة" ويرد ضاحكًا إنها غلطة تسببت في وجودي في الحياة.. يبتسم في "نوستالجيا" ويحكي: "كنت في ألمانيا، سافرت بعد النكسة وبعد ما طلعت من السجن وكتبت كتابًا عن كل الصدمات اللي في حياتي.. سافرت وأنا مش عايز أي حاجة من مصر، بتصعلك وبشتغل يوم آه وعشرة لأ، بعيط بالليل إني مش قادر أرجع.. محضرتش جنازة عبد

Twitter: @ketab_n

الناصر وبكيت وأنا بتفرج عليها في التليفزيون زي كل الناس اللي كانوا طفشانين زيي.. وفي يوم، عرفت من واحد صاحبي إن الرواية اللي كتبتها في مصر اتنشرت أخيرًا، الناشر حنّ عليا ونشرها.. طلبت كذا حد من صحابي وقلت لهم إني عايزهم يشتروليّ نسخ عشان لمّا أرجع مصر متبقاش خلصت.. المهم من ضمن الناس اللي كلمتهم بنت عمتك.. وهي مكدبتش خبر، راحت معرض الكتاب عشان تجيبلي النسخ.. واللي ما كنتش أعرفه ساعتها إنها خدت معاها صاحبتها وزميلتها في الجامعة.. كانوا صغيرين، في العشرينيات.. أوائل العشرينيات، وأنا كنت دخلت في الأربعينيات ومشيت فيها شوية.. بعد كام يوم.. أسبوع يمكن أو أكتر.. لقيت جواب جايلي من مصر.. من واحدة بنت.. صاحبة بنت عمتك.. اللي هي بقت أمك بعد كده.. بتقوللي إنها قرت الكتاب بتاعي، وإنها بتحبني وعايزة تتجوزني.. اتجننت.. قلت دي أكيد وحشة وبضبّ.. أو حلوة بس هبلة.. بس ما قدرتش أقاوم.. رديت على الجواب.. قعدنا نبعت لبعض جوابات سنة أو أكتر.. وبعتتلي صورتها.. كانت حلوة أوي.. أوي.. أحلى حتى من اللي كنت متخيله.. وعندها مخ مش هبلة"

أنظر إلى أبي في حيرة: "طب إنت حبيتها على كده؟" يجيب: آه طبعًا، حبيتها جدًا، حبيتها من قبل ما أشوفها.. كانت القصة الخيالية اللي في حياتي.. قصة صعب تحصل غير في الحكايات والروايات.. وده كان كفاية عشان أحبها.. نزلت وقابلتها وعشنا حياتنا.. واتجوزتها" أقول لأبي في سخرية: "مش عارفة تيتة وافقت إزاي بصراحة يا بابا" يضحك ضحكة طويلة: "جدتك

Twitter: @ketab_n

كانت ست قادرة، بس أمك قادرة أكتر منها.. لمّا رحت أتقدم لها.. جدتك قالت لي: بص يا ابني إنت راجل على باب الله.. صحفي بتكتب بالحتّه، ماعنكدش شقة، طول الوقت مسافر من بلد لبلد، يعني مش بتاع استقرار، أكبر من بنتي بأكتر من عشرين سنة، وما تزعلش يعني في الكلمة وكمان رد سجون.. أنا ما عنديش بنات للجواز.. طبعا أمك لمّا سمعت الكلمتين دول، اتجننت، بس كانت بتدبّر حاجة.. فضلِت قاعدة أسبوع في البيت وبعدين كلمتني واتفقنا نتقابل تاني يوم.. نِزلت هي من البيت.. اتقابلنا.. رحنا للمأذون ولقيت نفسي بتجوزها من غير ولا حد معانا.. هي كانت بتقول إن ده الحل الوحيد، ومتهيألي كان معاها حق.. بُصي أكيد ساعتها كان معاها حق.. أمك سابتني بعد ما اتجوزنا وروحِت.. حطت لجدتك ورقة جوازنا على ترابيزة السفرة وقالت لها إنها إتجوزتني.. وإن قدامها حل من اتنين.. يا توافق على الجوازة ونعمل فرح صغير عشان منظرها قدام العيلة أو إني أروح آخدها بالقانون.. ما أنا جوزها بقى.. جدتك بعد الخناق والضرب والانهيار وافقت عالحل الأولاني.. وعملنا فرح واتجوزنا رسمي بعد المرة الأولانية.. إيه رأيك بقى؟"

كنت أستمع لهذه القصة بانبهار.. لا أستطيع أن أصدق مدى قوة وجبروت أمي.. ومدى حب أبي وولهه بها.. كأنها شخصٌ آخر.. كانت قصة زواجهما موحية بالنسبة لمثلي.. وبعد سنوات كنت أجلس في مكتب أبي - تحت أقدامه على الأرض - وأقرأ خطاباتهما التي كان يحتفظ بها في رزمة كبيرة بداخل ظرف بني كبير في درجه الثالث. كانت أدراجه الثلاثة هي العالم السحري لي.. الدرج الأول يحتفظ فيه بأوراقه المهمة، بطاقته الشخصية

Twitter: @ketab_n

وباسبوره، وأحيانا بعض النقود القليلة، الدرج الثاني به كل نظّارات أبي منذ كان طفلا، به بايب بنيّ جميل، وعلبة فيتامين سي قديمة يحتفظ بداخلها بعملات فضية ونحاسية من بلدان مختلفة، به نظاره معظّمة سمح لي باستخدامها مرّة واحدة لأشاهد عرض باليه بالأوبرا، أدوية كثيرة لا يستخدمها، وأوراق جرائد مقصوصة، ربما قصّها منذ سنوات لأهميتها ثم نسيها في ظروف أخرى.. به صور لي في جميع مراحل عمري، صور لنا في أعياد ميلادي وأنا طفلة، وصور ونحن نستلقي سويًا على شواطئ المنتزه ومرسى مطروح، صور لا حصر لها للمرأة التي كان يحبها قبل أمي، صور لهما سويًا في بلدان مختلفة، هي طويلة ورفيعة وترتدي نظارات شمسية كبيرة جدًا في جميع الصور، بالدرج الثاني صور لأبي مع أصدقائه في بلاد العالم، برلين وبغداد ولندن ونيويورك وماليزيا وبلاد أخرى لا أعرفها.. صور لطفلة جميلة شقراء وهو يحتضنها في معظم الصور، أبوها يظهر مبتسمًا ومبتهجًا في الصور، عرفت في ما بعد أنها طفلة أحد أصدقائه القريبين من قلبه، الدرج الثاني مليء بالتفاصيل والذكريات الخاصة بأبي وحده، وكان هناك الكثير من الأشياء التي كنت أراها طلاسم لا يجيب هو عن أسئلتي بشأنها سوى بابتسامات غامضة وهروب دائم.. أما الدرج الثالث وهو درجي المفضل.. فهو مليء بالورق.. لا يوجد به سوى الأوراق.. أوراق كثيرة مكتوبة بخط اليد.. الظرف البنيّ الكبير الذي يحتفظ فيه بخطاباته لأمي، قصص كثيرة غير مكتملة، مخطوطات لقصص قصيرة نُشرت بعد زمن.. مخطوطات لكتّاب آخرين.. كانت هوايتي أن أفتح هذا الدرج عندما يكون أبي نائمًا.. وأجلس لأقرأ

Twitter: @ketab_n

كل ما أستطيع قراءته في ساعات قليلة.. ولم ينضب هذا الدرج أبدًا، فأجد به الجديد كل يوم، أجد به أوراقًا جديدة، أجد به حواديت وقصصًا.. كانت القصص كلها جميلة على الرغم من أن معظمها غير مُكتمل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

10

علّمني أبي ألّا أكون أبدًا على الهامش.. لا بد أن أقف بقوة داخل الصورة وإلا أتركهم يزيحونني إلى الهامش حتى أفقد الرغبة في الحياة وأصبح بلا فائدة أو نفع.. تذكرت هذا ونحن نمشي سويًا في اتجاه وزارة الداخلية.. بدأ الوضع يزداد سوءًا.. بعض الشباب المتحمس بدأ ينفعل على ضباط الأمن المركزي والعساكر المبتسمين في ثقة واستفزاز.. أجذب أبي من يده وأتعمد المشي في منتصف المسيرة.. تذكرت مرض أبي وقلبه المعتل وعدم قدرته على الجري إن احتدت الأمور.. أتباطأ في المشي حتى تكون لدينا مساحة للهروب إن بدأ الضرب.. وصلنا إلى الشارع المؤدي لوزارة الداخلية. المسيرة كبيرة والهتافات قوية ومتحدية وأنا أسمعها داخل رأسي كصدى الصوت.. كل هذا الزحام وهذا الحماس وأنا لا أسمع سوى صدى صوت ولا أرى سوى وجه أبي المترقب وعينيه اللتين تلمع بهما ومضة ذهول.

بدأ المتظاهرون يرشقون الأمن بالطوب.. أو ربما بدأ الأمن يرشق

Twitter: @ketab_n

المتظاهرين.. لست متأكدة، أحدهما بدأ وكان هذا في اللحظة المتوقَّعة.. شددت يد أبي في سرعة إلى إحدى البنايات القريبة.. أشعر بالقلق، ربما لن أستطيع أن أحميه مما يحدث هنا، همست له في أذنه: "تعالى نحاول نمشي من ورا، هنعمل مش من هنا" لم يرد، كان يراقب المعركة في قلق شديد: "الضرب فيه غباوة، ولاد الوسخة حيموتوا العيال"

بالطبع لفظ "ولاد الوسخة" يرجع دائمًا وأبدًا - وهذا ينطبق على كل مرة تأتي هذه الكلمة على لسان أبي - إلى أي فرد ينتمي للأمن، أي قوى أمنية وكل القوى الأمنية وبشكل تعميمي واضح لا استثناءات فيه.

قلت له: "طيب ما تقلقش.. الدنيا أكيد هتهدى دلوقت، تعالى بس نتحرك"

بدأنا نتحرك وأنا أحاول تحديد مسارات الطوب من فوق الرؤوس.. أصابتني طوبة صغيرة مثل الزلطة في كتفي.. فزِع أبي: "جرالك إيه؟ إتعورتي "لأ خالص، دي زلطة يا بابا ما تخافش" أخذنا نمشي حتى ابتعدنا نسبيا عن مرمى الضرب.. اتجهنا في خطوات سريعة إلى ميدان التحرير.. وصلنا الميدان وبدأت أسمع أنفاس أبي تتلاحق، صوت من التزييق ينبعث من صدره.. هذا غير مطمئن بالمرة: "بابا إنت حتمشي على فكرة، إنت تعبان، مش حتقدر عالقعدة وما حدش عارف إيه اللي هيحصل"، "آه بس أنا مش عايز أمشي، بُصي لما أتعب حقولك تركبيني

Twitter: @ketab_n

تاكسي   داعبته في سخرية: "وإنت مستغني عني كده؟ مش تقوللي روحي إنتي كمان" سكت ثواني: "بصي، أنا لو قلت لك تمشي، عمرك ما حتمشي، وأنا أصلاً مش حيجيلي قلب أقولك تمشي، لازم تقعدي، خليكي في اللي بيحصل، إوعي تمشي، خليكي مع الناس لحد ما نشوف ولاد الوسخة دول آخرهم إيه"

تمَشّينا في الميدان.. كل خمس خطوات أقابل أصدقاء وزملاء.. الميدان يمتلئ، أبي يقابل أصدقاءه، ينشرح صدره ويختفي صوت التزييق من رئتيه وينطلق في مناقشات عالية الصوت معهم.. لا أستطيع الابتعاد عنه.. ولكني أراقب عقارب الساعة، الميدان يمتلئ.. يتسلق شاب ما عامود نور في منتصف الميدان ويبدأ في تركيب سماعات كبيرة.. أستمع إلى هذا الشاب الرفيع وهو يقول في الميكروفون - صوته مشوش ونسمعه بالكاد - هذه إذاعة الثورة: بيان رقم واحد.. لا أستمع إلى البيان لأنني أنغمس في نوبة من الضحك والسخرية.. قرر الفتى أنها ثورة.. بضعة الآلاف من البشر في شوارع القاهرة وبعض المحافظات القليلة جعلته يقرر أنها ثورة.. زجرني أبي: "بس بس، دي الثورة بتبقى ثورة بنص العدد ده، إنتي بايتك مش فاهمة حاجة يا كئيبة، يمكن مين عارف" أرد في سخرية: "طب إيه رأيك لو تِرَوَّح ولو طلعت ثورة تبقى تنزل تاني، أوعدك لو لقيناها ثورة حاجيلك لحد البيت وآخدك بتاكسي على حسابي لغاية باب الثورة" تأفف أبي من تهكمي.. أقنعته أخيرًا أنه لابد أن يذهب إلى المنزل.. وضعته بسيارة أجرة وجدتها على أطراف الميدان: "إوعي تمشي غير لما يضربوا جامد، متفيَصِيش بسرعة".

Twitter: @ketab_n

"ماشي، بايعني إنت للآخر قال في جدية: "ما تخافيش لو إتمسكتي هعرف أطلعك"، "اسم الله من كتر ما الظباط بيحبوك" – "لأ بس حلاقي اللي ولاد الوسخة بيحبوهم"

ودعته أخيرًا ورجعت للميدان أنتظر لحظة الشتات.

Twitter: @ketab_n

11

الخضروات عند البائع تبدو طازجة.. إنه الباذنجان إذًا، أختار حبّات الباذنجان السوداء الكبيرة.. أتحسسها جيدًا بيديّ الاثنتين ..لا أريد ثمرات ليّنة ولا ثمرات قاسية.. الباذنجان يجب أن يتماشى مع حاسّة يدي.. أفعل المثل مع الطماطم والفلفل الأخضر الكبير.. أختار البصل البلدي ولا أفهم كيف يفضّل بعضهم البصل الهندي الطريّ.. يوجد ثوم طازج، أختار فحلين من الثوم.. لن أحتاج إلا لبضعة فصوص ولكني أفضل أن أشتري الثوم بالذات أكثر من حاجتي.. يحسب الرجل الحسبة وأمشي مع أكياسي البلاستيكية حتى أصل للبقال.. ما زلت أشتري طلبات المنزل من البقّال.. أكره المحلات الضخمة التي تبيع كل شيء وأذهب لبقّال معين يبعُد عن بيتي خمس دقائق من المشي لأختار من على الأرفف ما يلزمني من طلبات.. ألتقط علبة الصلصة، زجاجة زيت قلي وزجاجة زيت ذرة، علبة الملح الكبيرة.. لا يوجد لديّ ملح.. زجاجة خل متوسطة.. الجزار بجوار محل البقالة.. أطلب من الرجل كيلو إلا ربع من اللحم

Twitter: @ketab_n

المفروم.. أراه يدق اللحم ويفرمه، الأكياس ثقيلة في يدي وتترك علامات على أصابعي.. أضُم إليها كيس اللحم وأمشي حتى أصل إلى العطار.. أطلب تشكيلة من البهارات، جوزة الطيب، نعناع مفروم، فلفل أسود وكزبرة مطحونة.. ولا مانع من بعض حبّات المستكة ..الأكياس ثقيلة.. أفكّر أن آخذ "تاكسي" إلى المنزل ثم أقرر أن أمشي.. لا يوجد فرّان بالجوار.. ولكني أستطيع أن أطلب من حارس العمارة أن يشتري لي بعض أرغفة الخبز البلدي.. أستقل المصعد وأضع كل هذه الأكياس على الأرض.. أستلقي على الكنبة وأفرك يدي.. ألم شديد هذا الذي أشعر به.. ألم لا يزيله فرك يدي ببعضهما البعض.. الأكياس أمامي على الأرض.. أغمض عيني للحظة وأصحو بعد ثلاث ساعات لا أدري أين أنا.

يأتي صوت وردة من الكمبيوتر هي التي تساعدني أثناء الطهو.. "إنت الأمل والمنى والدنيا والأحلام وأنا من رضاك بيتسم للغيب وللأيام" أنهض وأرى الأكياس المنتظرة منذ ساعات على الأرض.. أقف في الزاوية وأبدأ في إفراغ الأكياس.. أقشر بصلتين.. أكره الماكينات والخلاطات التي تفرم البصل.. أفضل تقطيع البصل بنفسي.. عندما أقطعه بيدي تنسال الدموع من عيني وأنفي.. ولكنني أقطعه بالحجم المضبوط، مكعبات صغيرة جدًا، لها وجود داخل الطعام ولا تختفي تماما مثل البصل المفروم.. أُعاني من تقطيع البصل ولكنني أكره فرمه ولذا أحتمل الدموع وحرقان عيني.. أضع البصل في الآنية الصغيرة مع قطعة زبد صغيرة وأتركهما دقيقة حتى يحمرَّ البصل.. ما زال صوت وردة ينبعث من اللابتوب.. "قد اللي فات من عُمري بحبك وقد اللي

Twitter: @ketab_n

جاي من عُمري بحبك" متفائلة وردة للغاية.. قمة التفاؤل والاكتئاب في ذات القائمة.. احمرّ البصل.. أضع اللحم المفروم فوق البصل ..وأغطي الإناء ..أبدأ في تقشير الباذنجان.. ملمسه جيِّد.. ليس ليِّنًا وليس قاسيًا.. أقشر كل ثمرات الباذنجان.. ليس كلها.. ست ثمرات فقط.. ست ثمرات تكفي لصينية متوسطة.. وضعت الباذنجان بعد أن قطعته شرائح في طبق كبير مليء حتى نصفه بالماء، ووضعت قطرتين من الخل عليه.. قطّعت البصل حلقات والفلفل الأخضر والطماطم.. وبدأت أحضّر الزيت حتى أبدأ في قلي كل هذا.. أفكّر كثيرًا في كل ما يحدث.. علاقتي بعلي كما هي.. أنبهر ببراءته وشغفه ونظرة عينيه الطازجة.. أحب عيني علي ولا أملّ النظر إليهما.. منذ ذلك اليوم الذي صحوت لأجده يمسك بمعصمي وأنا أعرف أننا سنتلاقي بشكل أو بآخر.. أحكي لأبي عن علي وأبي يستمع باهتمام: "إنتي بتحبيه ولا إيه" "مش عارفة، يمكن.. بس هو مُهم.. يعني عارف لما تحس إن فيه حد متشعلق في رجل البنطلون، إنت مش عايز تديله البنطلون ومش عايز توعاه من عليه.. عايز تخليه جنبك كده وخلاص" ضحك أبي من تشبيهي الذي يبتعد عن الرومانسية.. لا أعرف كيف تعلّقت بعلي في هذه المدة القصيرة، ربما كانت فترة من التلكيك.. نتلكك لنقع في الحب، المشاعر تملأ الأجواء.. حماس وتظاهرات.. لا يوجد استقرار في شيء.. والحب هو أبعد ما يكون عن الاستقرار.. وكذلك علي.. هو أبعد ما يكون عن الاستقرار.

أفكر في علي وأنا أقلي حلقات الفلفل الأخضر.. نضج اللحم.. أفرم الثوم بالطريقة الكلاسيكية.. أفرش كيسًا بلاستيكيًا وأضع عليه

Twitter: @ketab_n

فصوص الثوم ثم أثني الكيس وأقوم بدقه بقعر كوب زجاجي.. طريقة قديمة بدائية ولكنها تفرم الثوم بالقدر الذي أريده بالضبط.. أطش الثوم في قدر من السمن أضع فوقه الخل فتنتشر الرائحة التي تشبه رائحة معظم البيوت في مصر.. التقلية.. أضع عصير الطماطم فوق الخلطة وأتركها تغلي قليلًا.

علي لا يكلمني أبدًا.. يرسل لي رسائل قصيرة.. يقول إنه سيأتي لرؤيتي أو أنه لن يأتي.. أكاد لا أعرف صوته على الهاتف.. أرى فقط اسمه على هاتفي عندما يرسل لي رسائله القصيرة التي غالبًا تحمل مواعيد لقاءاتنا وقليلاً ما تحمل أي رغي من أي نوع.. انتهيت من القلي.. أرُص الباذنجان وحلقات الفلفل والبصل والطماطم بالصينية.. أخلط اللحم المفروم بخلطة الثوم والخل وأضع كل شيء بالصينية داخل الفرن "عد النجوم.. عد البشر.. روح وتعالى.." ما زالت وردة تغني ورائحة المسقعة تملأ البيت.. لم يكلمني أحد اليوم، لن يأتي أحد لتناول الطعام معي.. لا أشعر بالجوع.. أشعل عودًا من الكبريت لأُدخن سيجارتي السابعة.. أطفئ الفرن وأذهب لأنام.

Twitter: @ketab_n

12

أتجول بالكاد في أرجاء شقتي الضيقة، ربما تكون هذه أصغر شقة في العالم، أربعة حوائط وزاوية صغيرة للمطبخ ودورة مياه ودولاب صغير داخل الحائط، سبع خطوات بالتمام والكمال وتنتهي الشقة، أعد خطواتي في صبر، أمشي داخل الشقة، داخل حذائي حتى أمل المشي وأقرر بصعوبة النزول إلى الشارع، وفي المصعد أتحاشى النظر إلى جاري الذي يرمقني بفضول طوال الوقت، حيموت ويعرف أنا مين وبعمل إيه، ولكن على من؟ لن أنجذب إلى حوار يملأ فراغ الخمسين ثانية التي يأخذها المصعد في الثمانية أدوار، لا توجد في حياتي خمسون ثانية لجار لن أراه إلا في مصعد زائل بعد أسابيع أو أشهر معدودة.

أمشي إلى نهاية الشارع الهادئ حتى أصل إلى الشارع الرئيسي، صاخب ومليء بالسيارات وسيارات النقل العام، أمتلئ فجأة بالفزع وأعود إلى الشارع الهادئ مرة أخرى، أخرج من شارع إلى شارع، الكثير والكثير من السفارات، ألوان أعلام لا أتبينها أبدًا،

Twitter: @ketab_n

الأعلام نائمة على جانبيها على الرغم من برودة الجو والريح القوية، لا أرى سوى شكل البنايات اللطيف، بنايات قديمة، متربة قليلا ولكنها جميلة إلا عندما يجاورها مبنى قبيح بناه السادات في زمن القبح والتشوهات.

أخطو أخيرًا إلى المقهى الإيطالي في الشارع الموازي لبيتي، مقهى صغير ومتواضع، لا أعرف من يمتلكه ولكن المهم أن أعمدته مصنوعة من الخشب وهذا كافٍ لكي أجلس به لبعض الوقت.. كالعادة أشرب كوب القهوة الثاني وأبدأ في تفقد المكان، لا توجد وجوه مألوفة (الحمد لله) لا أريد أن أرى بشرًا أعرفهم، لا أريد أن أتصنع ابتسامات وبالذات الآن، أو أن اضطر إلى اختلاق حديث صغير يملأ فراغ الوقت الذي يخلف السلام، حديث الخمس دقائق مزعج ويجلب لي الصداع فورًا.. وضعت السماعات في أذني وثبتها إلى الكمبيوتر، أستمع إلى الآبا؟ أم إلى بليغ حمدي؟ جورجيت صائغ أم هدى حداد؟ فيروز في الصباح هو القرار الذي لم يتغير منذ عشر سنوات على الأقل.. صباح ومساء، تشدو فيروز وأشرب القهوة حتى يبتل أنفي بالبن من الفنجان.

أرتعب من العالم الذي يقبع خارجي، دومًا هي نفس الرغبة في الانفصال عن الكون، عن تفاصيل الشوارع والكائنات الحية، أمتلك من الحيوات الموازية ما يكفيني ويكفي شعوبًا موازية أخرى، ويعرف كل من يقترب مني أنني في حالة دائمة من تمثيل الحياة.. لست زاهدة في الحياة ولكنني زاهدة في هذه الحياة بالذات، قصص الكواكب الأخرى تستهويني، المجرات الأخرى

Twitter: @ketab_n

بكواكبها ومخلوقاتها تبدو ساحرة، ولا أكف أبدًا عن قراءة آخر أخبار وكالة "ناسا" التي تبعث فيَّ أحلامًا بالسفر إلى أحد هذه الكويكبات يومًا ما.. سيكون لي كويكب خاص بي في يوم من الأيام، سأكون عجوزًا متغضنة وربما أكون قد أصبت بتصلب الشرايين والديمينشيا، ربما لن يكون هناك ما تبقى من خلايا مخي لأستوعب الكويكب الجديد الذي سأقطنه، ولكني سأبني عليه غرفة وسألون الحوائط باللون القرمزي الغامق وسألصق صورًا ملونة لكل الأشخاص، والأماكن التي أحبها، وسأصُف ذكرياتي في علبها الصغيرة على الأرفف مثلما أفعل دائما في كل مكان أذهب إليه.

أرمق الحائط أمامي وفيروز تستمر في الغناء، برج الحمام مسوِّر وعال.. لا أعرف كيف سيمضي هذا اليوم، غالبًا مثل أمس، أو على الأقل سيكون مثله مثل غد.

أرى السماء داكنة من نافذة المقهى، يبدو أنه المغرب، لا بد من الرحيل، حان وقت العودة إلى البيت الصغير لأعد خطواتي داخل الحذاء من جديد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

13

أجلس على حافة كنبتي الصغيرة منذ أيام أو أسابيع أو لعلها أشهر.. أجلس بلا أي تفاصيل، أتأمل وأرقب ..أفكر في كآبة.. ربما لم أعد بذات الشغف للمجهول مثل ما كنت.. كانوا يقولون عني، ما ليش كبير.. أفعل ما أفعل وأذهب إلى الأراضي المجهولة والبحار البرتقالية والزراعات المتقشفة والجبال اللينة، أذهب وأجري بكل قوتي إلى المجهول.. الترحال هو الغاية، والولع باللحظة التي لا ندري عنها شيئًا هو صلاتي.

لا أريد أن أستقر، الاستقرار هو موتي، لا أريد أن أعلم ما سيحدث أو أين سأذهب، أو من سأجوب معه الشوارع حالمة في لحظة ربما تكون ساذجة من لحظات اقتناص السعادة.

ربما أذهب إلى شوارع مرصوفة في عناية كالتي نراها في أفلام الأطفال الفرنسية، ربما أجد نفسي في مدينة تتكلم السواحيلية، فأرى قصصًا تحدث من حولي ولا أفهم منها حرفًا، ربما غدًا

Twitter: @ketab_n

أشرب القهوة على قمة من قمم شلالات فيكتوريا في مدينة أفريقية والأسود تتجول حولي في أنس وألفة.. ربما أجد نفسي في قصة رومانتيكية حالمة مع شخص يستحيل لقاؤه.. وأنا أجد نفسي في المستحيلات، وفي قصص الحب البائسة، مثل قصتي مع علي، القصص البائسة ممتعة ودرامية ولا يوجد بها استقرار.. لا أريد أن أستقر في الحب، ولا في مدينة بعينها.. لا أريد أن أستقر سياسيًا ودراميًا وعائليًا وكونيًا.. الاعتصامات والإضرابات والتظاهرات تفرحني، القصص غير المكتملة تلهمني، الجلسات العائلية المرتبة السعيدة تربكني والأمطار والنوات العاصفة تبعثني من جديد.

أقترب من الثلاثين عامًا وما زلت لم أر الجبال اللينة والبحار البرتقالية.. ما زلت لم أصبغ شعري باللون الأزرق مثل بطلة الفيلم التي تشبهني في كراهية الاستقرار.. ما زلت لم أقفز من طائرة يجذبني إليها حبل رقيق.. ربما أصل إلى الأسرار الكونية أو ينقطع الحبل فأسقط في راحة، ما زلت لم أقابل ملوكًا ورقيقًا وأطفالاً، ما زلت لم أستلق على ظهري على سطح ثلجي أملس، ربما ينكسر فأغوص في صقيعه أو لا ينكسر فأرى السماء بنجومها كما يجب أن تكون.. لم أر العالم بعد من قمة جبل ولا من قاع محيط.. لم أشرب القهوة المحلية على مقهى في كل مدينة في العالم.. ولم يمسك بكفي رجل من كل مدينة ليخبرني أنني الوحيدة من نوعي.. لم أعش دراما القصص العالمية، ولم أبك في مدن العالم بأجمعها وأنا في لحظة فراق حزينة.

Twitter: @ketab_n

أرقد على كنبتي منذ أسابيع، أو أشهر.. لا أعرف.. أفعل ما لا أستطيع أن أفعل، أجدني تائهة في مربعات مكررة ومدروسة.. أشعر بالملل.. الملل والاستقرار، أنا مستقرة على الكنبة، مستقرة في عدم الإحساس بأي ولع أو شغف من أي نوع.. مستقرة بعلي ومعه.. نتكلم بمواعيد ونتلاقى بمواعيد.. يأتي موعد اللقاء فأنهض بصعوبة من مجلسي الطويل لأغير ملابسي وأرتدي شيئًا لائقًا - ربما تعجبه ملابسي وربما لا.. لست أدري ولكنني أفعل هذا بكل ميكانيكية وآلية وثبات ..لأول مرة في أعوامي التي تقترب من الثلاثين أعرف بالضبط ما سيحدث.. سنتلاقى بكل شغف اللحظات الأولى، ثم هو حضن عتبة الباب المقدس، نأكل، ربما القليل من القنوات التليفزيونية المملة، كلمات قليلة للغاية نقولها، ربما نتعارك قليلاً على تفاصيل هي انعكاس لتعاستنا.. ثم ننام.

لا أعرف حتى الآن كيف يراني علي.. هل أنا انعكاس لما يحب أن يفعل ولا يقوى عليه الآن؟ هل أنا فتاة استيقظ يومًا، ليجد نفسه ممسكًا بيدها في لحظة سعادة مقتنصة ليقرر أن يظل ممسكًا بمعصمها حتى يمله؟ هل يراني متحققة وناجحة؟ هل أنا فكرة مبهمة بالنسبة إليه؟ هل أثير فضوله؟ هل أثير غرائزه فحسب؟ لا أعرف لماذا يصر على البقاء معي؟ ولا يوجد عندي أدنى فكرة عن اللحظة التي سيقرر فيها الرحيل، وربما يكون هذا الشيء الوحيد الغامض في كل ما بيننا من حياة واضحة ومستقرة.

لم أعد أحلم بالجبال الملونة والشلالات الصاخبة، تعودت أن

Twitter: @ketab_n

أرى في عينيه أكواني المرتقبة.. لم أعد أبحث عن قصاصات وصور لأماكن غامضة لألصقها على الحائط حتى يأتي يوم أضع حقيبتي على ظهري وأذهب إليها.. لم أعد أحلم؟ ربما لم أعد أذهب بلا قيود ولا تفكير إلى أكواني الخاصة وحواديتي وتفاصيل أتخيلها عن بشر لم أقابلهم بعد.. فقط أدخل في دوامة الإعادات والأحداث المتوقعة لأكتفي برؤية كل هذه الأراضي والمدن والشخوص في عيني علي.. وأعترف أن ما أراه في عينيه يعوضني عن الكثير مما فقدته من خيال، فهم لا يزالون الخيال ذاته.. كل إحباطاته وهزائمه وتخبطاته المستمرة تختفي في لحظة رائقة تلمع فيها عيناه وتتحول إلى صندوق الدنيا.. أريد أن آخذه معي لنرى الجبال الملونة الطرية سويًا، أريد أن نغمس أيدينا معًا في النهر البرتقالي، أريد أن أرقد على ذات السطح فنرى صفحة النجوم الثابتة والمتهاوية في سماء رائقة بلا تلوث أو دخان.. ليس مكانه وليس مكاني ما نفعل هنا.. فنحن لا ننتمي للدوائر المغلقة، لا ننتمي للمواعيد الثابتة والروتين المطلق واللحظات المكررة الخالية من الجموح والتوحش.. نحن لا ننتمي للأريكة التي أصبحت جزءًا من أجسادنا.. وأنا أرانا طوال الوقت بما تبقى لي من خيال نقتحم أماكن غريبة ونرى شخوصًا لا نعرفهم ونبكيهم عند الفراق، أرانا نرقص على نغمات أغان لا نفهمها بلغات غريبة، أرانا في مدن على حدود الدنيا ننتظر أمطارًا تبللنا فنتهلل كالأطفال عندما تتبلل وجوهنا بقطرات مياه تبعثنا من جفاف الحياة التي نعيشها داخل الكنبة.. ولذا أنتظره، وأخاف من لحظات اليأس والشقاء والملل.. أخاف أن تتملكنا فنذهب بلا رجعة ونندم على ما لم نفعله.. أفتقد "علي" بشدة..

Twitter: @ketab_n

أفتقد نظرة عينيه وهو ينظر لي في شغف وفضول، فأراها الآن فقط نظرات خوف وترقب وأحيانًا شكوكًا غير مبررة.

وهو كما هو.. جامح وشقي وبه كل خيالات الأطفال.. وأنا كما أنا.. مستعدة لبيع روحي لساحر مرتزق يقف على ناصية طريق من أجل تجربة جديدة.. أنا كما أنا وعلي كما هو، لا نمتلك شيئًا، من الفضول جئنا وإلى الفضول نعود.. لا يوجد لدينا خطط ونعيش فقط من أجل لحظة سعادة مطلقة أو ضحكة صاخبة أو نظرة تأملية مدققة أو ثانية انبهار بريئة.. ربما نعيش أجواء من التعاسة نظرًا للحظة التاريخية المعينة.. ربما يعيش هو لحظة مفترق الطرق السخيفة بكل ظلامها وكآبتها.. نعيش بعض الأجواء الفارغة من حقيقتنا ..لا أعرف إلى متى نستمر في هذه الطرقات المحددة التي تثير مللنا من الحياة بأكملها، ولكنني أعرف حقيقة واحدة، وأعرف أنه يعرفها.. سننتهي عشرات المرات، سننتهي في غم أو في ملل أو في صمت أو في صخب، ولكننا في كل مرة سنعود لنبدأ من جديد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

14

سيكون يومًا فارقًا، متوجســـة وخائفة.. أرتدي كنزة سميكة بها غطاء للرأس.. أضع في حقيبتي زجاجة ميـاه وبصلة صغيرة على استحياء.. لا توجد أي إمكانية للاتصال بأي شخص.. الاتصالات مقطوعة.. قطعوا الاتصالات "ولاد الوسخة" أستقل سيارة أجرة وأنطلق من الزمالك إلى مصر الجديدة.. الصباح ما زال طفلاً هو الآخر.. أجد أبي يتناول إفطاره بالشرفة.. ألقي التحية على عمَّتي الكبيرة التي تنظر لي في قلق: "إنتي حتاخدي أبوكي معاكي؟ حرام عليكي يا شيخة ده ممكن يتعب وما نعرفش نلحقه" قلت في عناد: "أنا مش باخد قرارات بالنيابة عنُه، وبعدين هو مصمم.. أنهي أحسن؟ ينزل معايا ولا ينزل لوحده؟". لم ترد وتمتمت ببضع كلمات تُفيد عدم رضاها عمَّا نفعل أنا وأبي المتهور.

ذهبت إلى كنبة أبي الأزلية بالشرفة، يقرأ جريدة اليوم ويمد ذراعه الآخر بطول الكنبة.. كعادتي منذ عشرين عامًا أو أكثر..

Twitter: @ketab_n

ربما هي عادتي منذ تعلَّمت المشي، وضعت نفسي تحت ذراعه المدودة، وبالطريقة المعتادة أيضًا ثنى ذراعه ليحتضنني وهو ما زال يقرأ الجريدة: "قريتي الجرنال النهارده"، رددت: "لأ.. فيه حاجة مهمة ولا كله زبالة ؟" بدأ يقرأ من صفحات الأهرام بصوت عال بعض المانشتات "عناصر الإخوان يحرضون على المظاهرات والأمن ينجح في إجهاض محاولات المحظورة، هدوء حذر يعود إلى شوارع المدينة وتواجد أمني تحسبًا لتجدد المظاهرات اليوم - تجدد المظاهرات في السويس للمطالبة بتحسين ظروف المعيشة - 100 مليون جنيه خسائر المحافظة من أعمال الإتلاف والإحراق والنهب - حرية التعبير مكفولة والفوضى ممنوعة" قاطعته: "بابا بقولك إيه، كفاية.. ما تقوم تلبس ولا إنت مش حتيجي معايا" "خلاص خلاص حقوم اهه"

جلست أتصفح الجريدة سريعًا.. عناوين الصحف خانقة ومُستَفِزة للغاية.. أُفكر.. ترى كيف سيمضى هذا اليوم؟ جاء أبي سريعًا.. انصرفنا معًا يطاردنا صوت عمَّتي وهي تُبدي عدم مباركتها لنا وإن كانت تدعو لنا بالسلامة في ذات الوقت.. ركبنا سيارة أجرة من أمام البيت واتجَهنا إلى ميدان التحرير.. أبي ينظر للشارع من نافذة السيارة ويسرح كثيرًا.. أتمنى أن أستطيع قراءة أفكاره.. بالتأكيد يفكِّر في ما يحدث.. بالتأكيد يفكِّر في ما كان يحدُث بالماضي.. بالتأكيد هو خائف.. صِحَتُه لن تُساعده على الجريَ.. ولكنني لن أتركه من يدي، هذا قرار.. صراحةً أشعر بالرعب.. اليوم نواجه المجهول، لا نعرِف إطلاقًا

Twitter: @ketab_n

ما سيحدث.. وجلّ ما أتمناه هو سلامة أبي وعدم تعرضه لأي أزمات من أي نوع.. الطريق لا يوجد به تقريبًا سوى عساكر وضباط الأمن المركزي.. الكثير والكثير من الصفوف.. أعداد مُفزعة.. ترجَلنا بميدان عبد المنعم رياض.. يوجد الكثير من الرجال الضخام.. المشهد الأول الذي شاهدناه من مسافة ليست بالبعيدة رجلان يمسكان بشاب رفيع وينهالان عليه بالضرب.. ضرب شديد.. لن أنسى مشهد الشاب المسكين وهو تحت أرجل المخبرين.. انتهى المشهد بسحب الفتى على الأرض وإلقائه في سيارة أمن مركزي تقف تحت الكوبري.. التفت لأبي في حزم: "خِلصت كده، إنت حتروَّح على فكرة" قال في هدوء مُستفزّ: "إنتي خلاص قررتيلي إنّي هروَّح؟" - "معلش، أبوس إيدك رَيِّحني، أديك شايف اليوم من أوله بادئ إزاي، أقولك أنا هَرَوّحك عالبيت عندي، أهو تبقى قريِّب من الأحداث وتبات معايا في نفس الوقت" كان أبي يعرف أنني على شفا الإصابة بحالة هيستيرية من الفزع، لا أستطيع تخيُّل أي مكروه يقع له أو رُبما أدرك في لحظة عقل أنه لن يستطيع مواجهة اليوم المجهول بصحته المُعتلة.. مشينا حتى الكوبري من جديد وانتظرنا دقائق حتى وجدنا سيارة أجرة.. ركبت معه حتى وَصَلنا للبناية التي أسكُنها.. اطمأننت أنه استقر أمام التلفاز: "بابا إنت عارف مكان كل حاجة، قوم إعمل شاي لو عايز، فيه فرخة مسلوقة في التلاجة، سخنها في الفرن لو جُعت وكُل عشان تاخد الأدوية بتاعتك.. أنا كده كده راجعة على هِنا بالليل.. ماتقلقش.. ماشي؟" كان وجهه يسوده الوجوم.. أمسك بذراعي "خُدي بالك من نفسك أحسن لِك، أنا مش ناقص، أنا رَوَحت عشان أرَيِّحِك.. خدي

Twitter: @ketab_n

بالِك من نفسك وبلاش تهور.. اجري لو حسيتي إن فيه قلق، الجريّ مُعظم الجدعنة.. فاهمة؟" ضحكت واحتضنته بقوة: "ما تخافش أنا جبانة أصلا" قال وهو لايزال يحتضنني: "لأ إنتي مش جبانة، إنتي قلبك ميِّت ومُتَهوِرة ومش مضمونة.. بس حتاخدي بالِك من نفسِك عشاني ابتسمت وأغلقت باب المنزل واتجهت مجددًا إلى اليوم المجهول.

عندما عُدت ليلاً إلى شقتي، كُنت شبه مُنهارة.. لا أستطيع الوقوف على قدمي من التعب.. مغطاة تمامًا بالتراب، الكثير من التلزيق على وجهي بسبب المياه الغازية التي استخدمناها بإفراط طوال اليوم في غَسل وجوهنا لإبطال مفعول القنابل المسيِّلة للدموع.. شعري الناعم الطويل منكوش تمامًا ويبدو كليفة تنظيف المراحيض، وعيناي بالطبع مثلي مثل الملايين الذين توَرّمت أعيُنهم بفعل القنابل والغاز.. أبدو كأني خارجة من قبري توًا.. فتح أبي الباب في لهفة: "الله يخرب بيتك، يا بنت الكلب أنا كنت حموت من القلق" قال هذا وهو يضُمني إليه في ذعر: "فيكي حاجة؟ فيه إصابات؟ جرالك إيه؟ إحكيلي بسُرعة" – "بابا اصبر عليّا بس آخد نفسي.. أنا مش قادرة أقف.. هحكيلك أهه" ارتميت على كنبتي الصغيرة وبدأت أحكي لأبي عن اليوم "بعد ما سبتك قُلت بلاش آخد تاكسي، مشيت لحد ما وصلت للأوبرا.. كان فيه مسيرة كبيرة جدًا، مشيت معاها، الهتافات كانت عظيمة، عالية وقوية وفيها تحدي كده.. المهم إن المسيرة وصلت لكوبري قصر النيل.. كل ده وفيه قنابل غاز جايَّة من كل حتّة.. أنا تقريبًا اتعميت.. وبعدين في الأول كنت بفرُك عينيا

Twitter: @ketab_n

من الدخان، فعيني تحرَقني زيادة.. وكل ما عيني تحرقني زيادة كل ما أحِس إني متغاظة أكتر وعايزة أكمِّل.. المهم طلعنا كوبري قصر النيل.. وعينك ما تشوف إلا النور.. نِفسي أعرف كانوا بيضربوا منين.. قنابل الغاز كانت جاية من كل حتة.. كل حتة.. بيضربوا بالخمس أو الست قنابل في نفس الوقت ولاد الكلب ..ما كنتش عارفة أمشي.. كنت بَتزَق، الناس كلها بتزُق في الاتجاه التاني للكوبري.. ما بقيتش فاهمة خالص مين رايح فين.. يعني إحنا دلوقت عايزين ننزل من الناحية التانية عشان نروح ميدان التحرير؟ ولا نرجع عشان أكيـــد مش هنعرف نِوصَل للناحية التانية؟ المهم أنا ما كنتش عارفة أتحرك ففضلت أتزَق وأشم في دخان وأهتف مع اللي بيهتفوا، كنت قد بدأت أنفعل وأنا أحكي هذا الجزء.. ربما أكون بكيت؟ لا أتذكر.. كان يومًا صعبًا.. أكملت: "كان فيه ناس بدأت تفقد أعصابها، بدأ واحد - ولد كده يمكن عنده تمنتاشر سنة - يزعق ويشتم جامد وبدأ يحاول يخلع عامود من أعمدة النور اللي عالكوبري، وجه واحد تاني يحاول يمنعه على أساس إن دي ملكية عامة، والولد انهار من العياط.. في الوقت ده كانت عربيات الأمن المركزي سدت المدخلين بتوع الكوبري.. أنا قلت كده شكرًا ده كمين.. طب دلوقت أنا ما بعرفش أعوم، بس ممكن أنُط في النيل.. أنا مش حقدر أكمِّل.. دي الفكرة اللي كانت مسيطرة على دماغي.. عُمري ما حوصل لأي طرف من أطراف الكوبري وبعدين أصلاً الكوبري مسدود من الناحيتين فمفيش فايدة.. كل ده وأنا أصلاً مش شايفة خالص من الدخان اللي عامليني.. في الوقت ده بالظبط كان فيه عيال بدأوا يحرقوا عربيات الأمن المركزي.. أنا مش

Twitter: @ketab_n

هضحك عليك، أنا خُفت.. أصل كل اللي جه في دماغي إن العربيات دي أكيد حتنفجر لو ولّعِت.. ولو انفجرت يبقى الكوبري كله هينفجر" أحكي ووجه أبي يتقلص مع الأحداث.. هو قلق ومتوتِر وملهوف على التفاصيل.. أكملت: "المهم إن العربيات ما انفجرتش ولا أي حاجة.. بس ريحة الحريقة مع ريحة الغاز كانت قوية جدًا.. اللي جابلي انهيار وخلّاني فضلت أصوَّت بِعلوْ صوتي إن كان فيه شوية من الأولاد اللي معانا عالكوبري مش راضيين يطلّعوا عساكر الأمن المركزي من العربيات.. أنا فضلت أصرّخ جامد، لأ والنبي طلعوهم طلعوهم.. ما ينفعش يموتوا محروقين.. قِمة الدراما بقى، بس الفكرة جابتلي ذعر رهيب.. الناس اللي ما كانوش موافقين على مبدأ الحرق انتصروا في الآخر وطلعوا العساكر.. عارف يا بابا كانوا عاملين زي الفراخ.. طالعين حاطين إيديهم على راسهم زي الأسرى.. وكان اتعمل ورا العربيات مخرج سحري.. العساكر كانوا بيخرجوا ينزلوا على طول من عالكوبري.. أصلُهُم لو فضلوا عالكوبري الناس ممكن تفترِسهم.. طول اليوم وهم بيضربوا فينا.. إتهرينا ضَرب وقنابل وبلي صغير كده بيطلع من البنادق الكبيرة وبيعوَّر جامد.. ده غير الرصاص اللي كنا سامعين صوته طول اليوم.. فيلم رعب مُستَمِر . سألني أبي: "هو إنتي كل ده كنتي لوحدك؟" –"لأ دانا قابلت كل الناس اللي أعرفهم عالكوبري ده.. كل الناس اللي أعرفهُم تقريبا كانوا عالكوبري.. بس كنت بشوفهم دقيقتين مثلاً وفجأة ألاقيهم اختفوا، اتشدُّوا بقى أو جريوا.. إنت مش فاهم، إحنا النهارده كنّا في معركة جبَّارة جبَّـــــــــارة".

Twitter: @ketab_n

يستمع أبي في رهبة وترقب: "أنا شفت حاجات في التليفزيون بس مش فاهم، كان لازم أنزل، ماكانش ينفع أفضل قاعد زي العيال الصغيرة في البيت، يلعن أبو العيا لأبو قلبي اللي ما بقاش بيستحمل حاجة ده" حاولت أن أشتت انتباهه: "إنت كلت ولّا لأ" - "آه كلت من غلبي كان لازم آخد الدوا.. كمِّلي" أكملت: "بعد ما عربيات الأمن المركزي اتحرقت.. الدنيا هديت شوية، أو ده اللي كنت فاكراه، نزلت من عالكوبري.. قابلت ناس صحابي، مشيت معاهم لغاية التحرير، الشمس كانت بتروح، كان فيه حاجة غريبة بتحصل.. العساكر تقريبًا اختفوا من الشوارع.. والسما مليانة دخان.. والناس بتهتف جامد.. طب أقولك على حاجة، أنا هتفت والناس هتفت ورايا وصوتي كان رفيِّع وعبيط جدًا.. ما عرفتش أوصل الميدان.. الدخان كان طالع من المبنى الكبير اللي عالكورنيش، المقر الكبير بتاعهم.. بيتحرق والنار طالعة منه.. فيه ناس بتجري من جوَّه شايلة حاجات.. أنا كنت واقفة الناحية التانية وكنت خلاص مش قادرة أقف، بس مش قادرة أمشي.. ناس شايلين كراسي وكمبيوترات وورق وأباجورات.. حاجات كتير.. والناس في الشارع بتقول حاجات غريبة.. بيقولوا فيه حظر تجوُّل وفيه بيان رئاسي وكلام كتير كده.. بس اللحظة اللي أنا اترعبت فيها لمَّا قالوا أصل الجيش نِزِل.. يا نهار اسود، جيش إيه؟ حيضربونا بالدبابات ولا إيه" قال أبي: "أيوه أنا شفت الدبابات والمدرعات في التليفزيون وقلبي كان حيُقف" قلت في تطيُّر: "بعد الشر يا عم إنت.. أنا كان هاين عليَّا أطلع أجري.. أصل عربيات أمن مركزي وعساكر وظباط ماشي، ممكن نتصرف معاهم، بس ده جيـــــش.. جيـــــش،

Twitter: @ketab_n

أنا ما شفتش المدرعات دي غير في بانوراما ستة أكتوبر أصلاً.. المهم ما تفهمش الناس قررت إنها تتعامل مع المدرعات على إنهم نازلين زفّة أو مولد وبدأوا يجروا على الدبابات ويطلعوا عليها ويحضنوا العساكر ويهتفولهم.. أنا ما فهمتش خالص الحوار ده، بس اللي حسيت بيه إن من كُتر ما الناس كانوا خايفين وتعبانين قرروا يحرجوهم، فالتانيين ما يعرفوش يضربوهم"

التلفاز يئز بأخبار وأنا أحكي.. صمت لحظات، اكتشفت عدم قُدرتي على الحكيّ أكثر من ذلك.. اليوم أعرف أنني رأيت الكثير والكثير من الدماء.. لم أحك لأبي كل التفاصيل، لم أحك له عن دماء فتى أثرها ما زال على ملابسي وإن كانت قد بهتت.. عندما وقع ذلك الفتى وأصابته رصاصة لم تكن طائشة، كنت على مسافة قريبة وكان التدافع شديدًا.. لا أريد أن ألمس الفتى، لا أريد أن ألمس الدماء.. ولكنني وقعت تقريبًا في حضنه، كان قد مات.. الرصاصة أصابته في صدره أو في قلبه، لا أعرف، المهم أنه مات فورًا.. تلوثت ملابسي بدمائه.. كان كل همِّي ألَّا تلوثني الدماء.. اختلت دقّات قلبي.. أزاحني أحد المتجمهرين حول الفتى وهو يهتف: "الواد مات الواد مات يا ولاد الكلب" لم يكن الأول ولكنه الأول الذي لوَّثني بدمائه، زحفت على يدي حتى أبتعد عن التدافع.. أقف مجددًا على الحافة وأراني أقفز بكل قوَّتي إلى النهر.. لم أقفز، لا بد أن أعود إلى أبي.. لا بد أن أحكي له ما رأيته ولا بد أن أطمئنه أنني بخير.. لم أقفز.. ربما كان لا بد أن أقفز.. ولكنني لم أفعل.

Twitter: @ketab_n

15

قرأت الكثير عن سنوات السجن الستينيَّة.. معظم جيل المثقفين دخل المعتقل لمدة خمس سنوات، ما انفك أبي يسميها بلَمة 59.. مثقفون يساريون وبالطبع إخوان مسلمون وغيرهم ممن ليس لهم لا في الثور ولا الطَحين ..كان أبي من السُذَج الذين اعتقِلوا بعد خروجهم من السجن سنة64.. كانت هي "اللَّمَة السياسية الأشهر وكان هو يحكي عنها على استحياء.. دومًا بذات الابتسامة.. نوستالجيا السجن.. الحنين الذي لم أفهمه أبدًا.. كنت أستقي منه التفاصيل، أحاول أن أعرِف شكل الزنزانة، كيف كان ينام، ماذا كان يرتدي، أحاول أن أمحو صورة السجن الإكليشيهية من رأسي.. هل كان يرتدي زيًا أزرق كما نرى في الأفلام؟ لم أعرف أبدًا.. كانت حكاياته دوما تصُب في نطاق زملائه المسجونين.. وأنا كنت طفلة لا أعرف شيئًا عن الأسماء التي يرددها.. ولكن القصة التي أتَذَكرها دومًا هي قصة فؤاد حداد.. هو ليس مصريًا، أو هذا ما فهمته كطفلة في التاسعة، وكان يكتُب الشعر.. كان أبي يحكي أنه كان ينام في الدور الأول

Twitter: @ketab_n

من السرير وكان يُشعلق نفسه من قدميه حتى يرى أبي رأسه في الدور الأرضي من السرير.. كان يحكي أنه يكتب الشعر بالعكس.. يبدأ كتابة القصيدة من نهايتها ورأسه يتدلى إلى أسفل.. كانت هذه القصة تُضحِكُني بشدة.. وأبي لم يكن كذلك.. كان غالبًا يكتُب وهو تعيس.. يُغطي وجهه بيد واحدة ويكتُب.. وأنا أذهب لأجلس على فخذه، فيحتضنني من وسطي ويُكمِل.. أحيانًا كان يُقبلني وهو يكتُب وأحيانًا كنت أشخبط على الورقة التي يكتُب بها حتى أستفِزُه فيضطر للالتفات إلي.. وكان هو يضحك ويقول: "شخبطي وقطعي اللي إنتي عايزاه.. مانا مخَلِفك عشان كده.. إنتي تقطعي وأنا أكتب من أول وجديد" أصمت وأراقبه وهو يكتُب ثم أترجَّل وأذهب إلى غرفتي.

عندما مات عبد الوهاب.. حزِنت حُزنًا عميقا.. كنت أظن أنني سأحزن عليه وحدي ولن يبكيه أحد.. لم يهتم أحد بمنزلنا بأعماله وكانوا يمرّون عليه مرور الكرام.. وبصراحة وبلا ادعاء، أنا لم أكن أحبه هو شخصيًا.. كنت أحب القصص والحواديت التي يعرِضها ويحكيها ويرُد عليها.. فوجئت عندما وجدت أبي يبكي في حُرقة.. لم يكن يقرأ عبد الوهاب في الجريدة، لماذا يبكيه إذن.. لم أُكذب أمرًا وذهبت لأسأله. نظر لي في غيظ: "عبد الوهاب اللي مات يا نادية، مش عبد الوهاب مطاوع"، "آه، الراجل بتاع نجوى؟" ونجوى هي القصيدة التي كان أبي يسمعها يوميًا لمدة سنوات.. لم أفهم منها حرفًا حينئذ.. إذا ما ضمني الليل الحزين تهزني النجوى.. يبدو أن لها ذكرى مُعينة في رأسه.. هي أغنية كئيبة ويغنيها عبد الوهاب بكآبة أكثر.. واضح أن النجوى

Twitter: @ketab_n

قد هزّته بشدة.. إذن فالذي مات وعُمري تسع سنوات هو عبد الوهاب آخر وليس هذا الذي أتسلى بقراءة قصصه في الجريدة.. أحسن.. ندمت بالطبع على هذه الشماتة بعد فترة قصيرة من هذا اليوم عندما عرفت من هو عبد الوهاب، وبَدَأَت أُذُناي تُدمنان أَغانيه حتى أصبحت أكثر تعلُّقًا به من أبي نفسِه.

أجلس أمام تلفازي الكبير في بيتي الصغير، متمددة على كنبتي القُرمزية.. أُشاهد قُرُنفلة وهي تحكي عن حبها لحلمي في فيلم الكرنَك "حلمي ده حبيبي وأخويا وابني، يمكن هو حبِني الأول بس أنا حبيته أكتر، اللي مريحني إنه بيحبني عشان محتاج لحنان" أُشاهد قُرُنفلة وأتذكر علي.. هي تلخص بمنتهى الاختصار علاقتي بعلي.. ربما لا تكون علاقتنا بذات التعقيد.. ولكنها بالتأكيد ليست علاقة عادية.. منذ ذلك اليوم.. لا أستطيع أن أنساه.. إنه ذلك اليوم عندما صحوت من نومي، نصف نائمة ونصف متيقظة، يملأ العماص عيني وأرى الكون حولي بضبابية ورمادية شديدة.. يدي تؤلمني.. أجده يمسك بمعصمي وهو مستغرق في النوم.. أحاول أن أحرر يدي فلا أستطيع وأخشى أن يستيقظ فتضيع اللحظة.. أتأمله ثواني معدودة وأعود إلى النوم وعلى وجهي ابتسامة وأنا أدرك تمامًا أن تلك هي اللحظة الأولى.. وأنا ملكة اقتناص اللحظات الأولى.. أستاذة في اقتناص اللحظة ووضعها في صندوقها الخاص.. أَنظُر إلى علي في ملكوته الخاص.. نائم ومُبتسم ومتشبث بي.. أَنظُر إليه وأعرِف بداخلي أنني سأصنَع منه رجُلًا.. أتاني طفلًا وسيذهب عني رجُلًا.. أفتح عينيَّ في الصباح لأراه ينظُر إليَّ مُتأملًا.. إنه قَدَره الذي جاء به

Twitter: @ketab_n

إلى هُنا.. إلى أريكتي القرمزية.. أتى ليعبُر جِسره الخاص، لآخذ بيده وأعبر به.. وأنا أحتضنه الحُضن الذي أعرف أنه سيكون ميثاقُنا في ما بعد.. ميثاقُنا حضن عتبة الباب.. حُضن ما قبل النوم.. وحُضن الصباح المُقدس.. وحُضن بلا مبرر إطلاقا سوى اعترافٍ ضِمنيّ أننا مازلنا سويًا.

Twitter: @ketab_n

16

كانت سنوات مراهقتي صعبة.. لم أكُن قريبة من أحد، كنت أقف على حذائي فقط وأدفع الجميع للابتعاد عنّي.. حتى أبي كان بعيدًا على الرغم من محاولاته المستميتة في الاقتراب مني والتودد إليّ.. الأرجح أنني في هذه الفترة كنت بدأت في استيعاب أزمات بيتنا.. بدأت أستوعب أزمة الصمت المؤلم بين أبي وأمي.. كانت قصة الحُب التي يحكي عنها أبي بابتسامة مريرة دومًا في ذاكرتي.. هي أيضًا كانت تحكي.. تحكي وهي تلوم نفسها بين الجُملة والأُخرى: "اتجوزت أبوكي وأمي مش راضية ودفعت التمن وهي كان عندها حق، أهه زي ما انتي شايفة قاعد طول الوقت عالمكتب وحتى اسمي ما بقاش بيطلع من بقه.. يا ريتني كنت اتجوزت مُدرس ولا مُحامي.. كان زمانه عالأقل بيتكلم معايا" كانت تشكو طوال الوقت من صمت أبي وانشغاله في أوراقه ومكتبه وكُتُبه وقراءاته.. كانت تشكو أنه لا يتكلم معها ولا يُدخل نفسه في أمور البيت التافهة.. فهمت بعد سنوات وسنوات – وعلى الرغم من سوء علاقتي مع أُمي التي كانت ترى

Twitter: @ketab_n

أنني "بايظة زي أبويا" - أن المرأة رُبما تبحث أحيانًا عن رجل يذهب معها إلى البقَّال ويتشاجر مع بائع الخُضروات من أجل قروش فارقة في كيلو البطاطس.. هو رجُل ومثقف وعقله "يوزن بَلَد" كما كانت تقول، ولكنه لا يتكلم معها أبدًا.

وأبي لم يتكلم معي أيضًا في سنوات مراهقتي، كان يتودد إلي أحيانًا وعلى استحياء وأعرف هذا عندما يناديني بـ"النّنوس"، فأبتسم وأتدلل وأقول إنني كبرت على الجلوس في حُضنه، فيقول وهو يصطنع تقطيبة كبيرة: "كِبرتي مين دانتي حتفضلي طول عُمرك عَيلة كده، إن شاء يبقى عندك ميت سنة، قال كبرتي قال، إنتي حتفضلي النّنوس على طول يا بنت" فأذهب في استسلام للجلوس في أحضانه وهو يقرأ وعلى وجهه ابتسامة.. لم أكُن أمَلُّ الجلوس في حُضن أبي، ولكنني كنت أعيش بداخل فقاعتي الخاصة.. أضع سماعات الووكمان التي ابتاعها لي صديق أبي من أمريكا.. لونه أحمر وجميل.. أضعها على أذني وأضبط الصوت على أعلى درجة وأستمع إلى أغاني الروك المختلفة، إيقاع الجيتارات والموسيقا الصاخبة - والصادمة بالنسبة لأمي- كانت تُهدئ أعصابي.. كنت أستمع إلى فرق الروك مثل جنزن روزز وميتاليكا وبون جوفي وأستمع إلى فريق الآبا الذي يُحبه أبي، أستمع إلى شيكيتيتا وأحفظ كلماتها حتى أدندن بها أمامه ليعرف أنني لست صغيرة وأستمع إلى ذات الأُغنيات التي يُحبها رجُل ناضج في سنِّه.. أستمع إلى نجاة وإلى سيد درويش ومحمد فوزي.. أستمع إلى البوب وإلى مايكل جاكسون وأحفظ كل أغانيه عن ظهر قلب.. أضع طلاء أظافر أسود وأتظاهر أنني أشبه فتيات

Twitter: @ketab_n

الروك بأمريكا ويخذلني شعري الناعم الطويل الذي لا يتجعد، يجب أن يكون شعر فتيات الروك متجعدًا وهائشًا، وأنا شعري ناعم وطويل ولا يتجعد.. أستمع إلى كل المطربين والمطربات.. أحفظ أغاني منير عن ظهر قلب ولا أرى تعارضًا في كل هذا.. فعلى الرغم من أنني كنت أتمنى أن أُشبه فتيات الروك وأقف طويلاً أمام صورة أحد نجوم الروك المعروفين آنذاك المعلَّقة على حائط غرفتي وأمسك بالمقشة كأنها جيتار وأهز رأسي في عنف مثل ما يفعل في أغانيه المصوَّرة - إلا أنني لم أجد غضاضة أو تعارضًا في أن أتأثر برقة عبد الحليم ومرضه وصوته الحاني الأقرب إلى المَسْكَنة.. كانت السمَّاعات لا تفارق أُذني على الرغم من صريخ أُمي واعتراضها ونظرات أبي اللائمة التي تدعوني إلى خَفض الصوت قليلاً.

لم يكن أحد يفهمني على الإطلاق.. مثل جميع المراهقين والمراهقات - ومعهم كُل الحق - لم يفهمني أحد.. كنت وحيدة تمامًا، لا أطيق أقراني في المدرسة وأحلُم أن تنهار المدرسة فوق رؤوسهم جميعا فيموتون وأحيا أنا فقط، أنا ورضوى.. صديقتي القصيرة والوحيدة التي تفهمني وترى نجم الروك - المعلَّق على دولاب غرفتي - ساحرًا على الرغم من شعره المنكوش المجعَّد ومن وجهه الذي لم أره أبدًا بسبب تدلي خصلات هذا الشعر على وجهه بالكامل.. ولكن رضوى تعرِفُني ونفعل معًا كل الأشياء.. نصمُت سويًا ونهرب من المدرسة سويًا ونقرأ ذات القصص التافهة سويًا ونكره المدرسة سويًا.

Twitter: @ketab_n

وأنا أحب بيت رضوى.. تتركني أُمي أذهب إليها لأنها "شاطرة وبتطلع الأولى ويا ريتك زيَّها"، أذهب إليها في أيام الأجازة لنستمع معًا إلى أغاني الروك - هي لا تحبها كثيرًا ولكنها تفعل هذا من أجلي، نأكل البطاطس المحمَّرة التي يصنعها أبوها، ونقلِّب في مكتبتها الصغيرة، أكون أنا قد أحضرت بعض الكتب من مكتبتي - أو مكتبة أبي التي أشاركه فيها، هي تأخذ كُتُبي وأنا أختار بعض كُتُبها.. نتبادل الكُتُب، وهي تلعب مع فأر صغير ابتاعته من محل حيوانات أليفة بمصر الجديدة.. تقول في غُموض إنه فأر تجارب، ثم تقول ببراءة مصطنعة: "بس أنا مش هعمل عليه تجارب ولا حاجة، حـــرام أحسن يموت" أُمها تكره الفأر وتتمنى أن يهرب ولكنها لا تستطيع أن تقتله مثلاً أو تفتح له القفص لخوفها وقرفها منه. كان الاختلاف الرئيسي بيني وبين رضوى هو حُبها للعُلوم والفيزياء.. كانت بالفعل تقوم بتجارب ساذجة في البيت.. تسرق أشياءً من معمل المدرسة، وتبتاع سوائل غريبة وتضعها جميعا في سحاحات وتنظر إلى الألوان والأبخرة في وله.. بالنسبة لي كانت مُخرفة.. وثبتت نظريتي عندما انتهى بها الحال بعد سنوات كجرَّاحة ناجحة في مستشفى ضخم بأحد أطراف الكرة الأرضية ولم ينته بها الحال في معمل أبحاث مثلا.. كانت غريبة تهوى الكيمياء والفيزياء، وتنتشي بالجراحة.. وأنا أضع أشرطة الروك في الكاسيت الصغير بغرفتها بجانب الشُرفة وأطلي أظافري باللون الأسود وهي تضع السوائل في السحاحات ونتشارك في كراهية العالم الخارجي وقراءة القصص.

Twitter: @ketab_n

ماتت أمي وأنا في الرابعة عشرة من عُمري.. ماتت فجأة، كتب الطبيب الذي أحضرناه من المُستشفى الحُكومي بجوار بيتنا في شهادة الوفاة: "أزمة قلبية"، غالبا جميع الأطباء يكتبون أنها "أزمة قلبية" عندما لا يكون لديهم تفسيرات أُخرى.. لم أبك أمي.. هذا طبيعي، أنا لا أبكي، لم أبك كطفلة ولم أبك كمراهقة.. أصر أبي ألّا أحضر طقس الغُسل.. كان يرى هذا قاسيًا على فتاة في عُمري، ولم أُصِر إطلاقًا.. لستُ مُهتمة لهذه الدرجة وإن كنت أشعُر بفضول كبير تجاه ردة فعل أبي لموت أمي.. وكالعادة فاجأني أبي ببكائه الصامت أثناء دفن الجثة.. لا أعرف لماذا يبكيها.. أنا واثقة أنه توقف عن حُبها منذ زمن.. ارتبكت لرؤية دموع أبي.. كنت قد رأيته يبكي في صمت أمام أوراقه من قبل.. ولكن رؤيته يبكي في هذا اليوم أربكتني وسببت لي الضيق والعصبية.

بعد موت أُمي، تغيَّر شكل حياتنا.. أصبح لديّ مسئوليات جديدة لم يكُن أصعبها إعداد الطعام لي ولأبي.. قرر أبي أنني السيدة الأولى للمنزل.. كان يصر على إخباري بتفاصيل مصروف البيت.. وكان يدوِّن البنود التي نستهلكها في كراسة صغيرة وبخط دقيق.

الجرائد
الإيجار
الجزار
الزبَّال

Twitter: @ketab_n

الكهرباء
مصروف نادية
الأدوية
مصاريف المدرسة
كُتُب المدرسة
ملابس المدرسة

لم يكن راتب أبي كبيرًا، ولكنه كان يكفينا بالكاد.. كان دومًا يفخر أننا لا نحتاج لأحد ولا نحتاج لشيء وأننا وصلنا لهذا دون أن يرتشي أو يسرق أو يفعل أي أشياء قد نندم عليها - سويًا - في يوم من الأيام.. لم تكن الحياة تعيسة، وكان أبي يرغي طوال الوقت.. وأنا أستمع إليه في صمت وهو يحكي حكايات لا تنتهي عن طفولته وأبيه وإخوته وسنوات السجن الستينية.. يحكي عن سفراته الطويل منها والقصير.. لا يحكي كثيرًا عن أُمي ولكنه يفعل أحيانًا.. يحكي عن حبيباته السابقات ويصفهن لي بمنتهى الدقة وأحيانًا، يفتح دُرجه الثاني ليُخرج صورًا يوثق بها حكاياته.. وأنا أصمت غالبًا وأسأل أحيانًا وأستمتع دومًا بحكاياته التي لا تنتهي.. أتشبث بذراعه على أريكتنا الزرقاء وهو يتكلم ويتكلم. حتى أنام.

لم أتخل عن أبي، فقط كان لا بد من الرحيل.. منذ كُنت صغيرة وأنا أرفض فكرة أن البنت تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها.. لم أتخل عن أبي في مرضه وكِبَر سنه.. فقط أردت أن أكسر القاعدة.. هو يعرفُني منذ كنت في رحم أمي ويعرف أن حركتي

Twitter: @ketab_n

القلقة التي كانت تقلق منامها وهي تحملني بداخلها، لأنني لا أُريد أن أتواجد في مكان لم أخترهُ بكامل إرادتي.. جلست معه وأخبرته بقراري.. أنا الآن "كبرت" وأعمل بشركة كبيرة، أتقاضى راتبًا جيدًا يسمح لي بدفع إيجار شقة صغيرة.. وَجَم أبي قليلاً.."عايزة تسيبيني يا نادية؟" رددت في تأثُر: "لأ مش عايزة أسيبك خالص، ومش معنى إني حمشي من البيت إني حسيبك، حجيلك كُل يوم وانت حتيجي تبات معايا كتير، مرتين، تلاتة، في الأسبوع.. مش حسيبك وبلاش تضغط عليا والنبي قال: "لأ مش بضغط عليكي، وعارف إني ما أقدرش أضغط عليكي، وأنا صُغَير، كنت أول لمّا بخرُج من البيت عشان أروح المدرسة أروح أقف قُدام محطة القطر، أفضل أبُص للقطر وأقول لنفسي أول ما يبقى معايا فلوس، حهرب وأروح مصر، القرية اللي كُنّا عايشين فيها كانت طابقة على نفسي، مش عشان هي وحشة بس عشان أنا ما اخترتش أعيش فيها، أنا عارف إنك مش بتكرهي البيت، بس إنتي عايزة يبقى عندك حاجتك" قُمت من مكاني واحتضنته: "يعني إنت موافق؟" قال بسُخرية: "وهو أنا يعني لو ما وافقتش حتسمعي الكلام؟" قُلت في جدية: "آه، لو قُلتلي بصراحة كده وبشكل مُباشر إنك مش عايزني أمشي حستنى" رد في حنق: "ما انتي عارفة إني مش هعمل كده" قُلت: "خلاص يبقى إحنا كده تمام، حتدفع كام في العملية دي بقى؟" قال بابتسامة ضيقة: "ما انتي معاكي مصروف البيت يا نادية، شوفي عايزة كام وظبطي الأمور، إنتي ناوية تمشي إمتى؟ ولقيتي مكان أصلاً ولا لأ؟" قُلت: "لأ لسه مبدأتش أدوّر، قُلت أتكلم معاك الأول، يعني بفكر إن في خلال 3 شهور مثلاً أكون

Twitter: @ketab_n

ظلبطت أموري" كُنت أرى لمحة من الحُزن على وجهه، أنا لا أريد أن أكون سببًا في هذا الحُزن، ولكنني كُنت قد اتخذت قراري.. سأتلم أشيائي من البيت وسيكون لديّ بيت جديد.. عتبة جديدة وتفاصيل أصنعها وحدي.

لم يستطع أبي العيش وحده طويلاً فانتقل إلى بيت عمّاتي بمصر الجديدة، هن يعشن بمفردهن بعد موت أزواجهن ولم يمانعن في انتقاله للحياة معهن.. هو لا يستطيع الحياة وحده.. ظللت أنا أُدير مصاريف الشهر حتى بعد انتقالي للحياة وحدي.. وجدت شقتي الصغيرة وابتعت كنبتي الحبيبة التي أصبحت قوقعتي – أصبحت أرقُد داخلها مثل السُلحفاة التي لا تغادر غطاءها.. أعمل فقط عندما تنتهي نقودي وأحتاج لدفع إيجار الشقة.. لا توجد لي متطلبات، لا توجد احتياجات.. أشتري أشياء لا أحتاج لها عندما تكون هناك أموال في حافظتي، وعندما تفرغ الحافظة فقط، أجلس بالبيت داخل الكنبة.. أتفرج على أفلام قديمة بالتلفاز وأبتسم في معيلة وأنا أرى زينات صدقي تزنُق إسماعيل ياسين في المطبخ في ابن حميدو.

Twitter: @ketab_n

17

عندما كان عمري اثني عشر عامًا، وقبل موت أُمي المفاجئ بعامين، قرَرَت رضوى يومًا أننا لن نركب الحافلة المدرسية، وأننا سوف نمشي اليوم إلى بيوتنا.. أخبرتها أن هذا جنون، وأن المسافة من المدرسة إلى بيوتنا طويلة والجو حار للغاية - هذا بجانب المعركة التي سنخوضها عندما تعرف أمهاتنا أننا فعلنا هذه الجريمة.. ضحكت في عبث وقالت: "ما همّ كده كده بيتخانقوا، تعالي بس نتمشى، ما تخافيش حنمشي بخطوة سريعة ومش حنتأخر كتير كنت أُريد من داخلي أن أذهب معها، ولذا لم أقاوم كثيرًا وإن كنت قد تمتمت ببعض كلمات الاعتراض الخافتة.. مشينا لمدة ساعتين أو أكثر قليلاً.. نمسك بأيدي بعضنا البعض ونحن نعبُر الشارع، نقفز على الأرصفة ونضحك بصوت عال.. حقائبنا المدرسية الثقيلة على ظهورنا.. نلهث كل فترة فنتوقف للراحة لدقائق معدودة ثم نعود للمشي من جديد.. كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها الشوارع وحدي.. قلت يومها لرضوى: "عارفة أنا نفسي ف إيه؟ نفسي يوم كده

Twitter: @ketab_n

نفضل نمشي نمشي.. بس يكون بالليل، ونسهر بره البيت للصبح.. ما نروحش غير لمَّا الشمس تطلع" ضحكت وقالت: "هيحصل، بس لمَّا نكبر عشان يسيبونا نُخرُج بالليل.. بس وعد هنعمل كده في يوم وافتكري أنا بقولك أهو" قلت: "أيوه ونتمشى ونروح الناحية التانية من الكوبري ونخُش سينما من بتاعة بالليل" كانت هذه أقصى طموحاتي.. أسهر حتى الصباح في شوارع وسط المدينة.. أمشي أنا ورضوى حتى تتكسر أقدامنا من التعب بلا هموم أو قيود.. بلا معركة في نهاية المطاف وبلا حسابات من أي نوع.

بعد سنوات من هذا اليوم، وعندما ذهبت لزيارتها في شتاء ثلجي في البلد الذي تسكُنه وتعمل به بالطرف الآخر من الكُرة الأرضية، تذكرنا هذا اليوم.. نجلس سويًا في ميدان واسِع على أحد الأرصفة ونرقُب أصناف البشر يمرُّون من حولنا بخطوات سريعة، لا أحد يلحظ جلوسنا على الأرض، ولا أحد يحاول إلقاء عبارات غَزَل سخيفة مثل التي نسمعها في بلادنا.. أقول في سخرية: "الرجالة اللي هنا غير الرجالة اللي في مصر خالص، إلّا ما في حد حاول يغلِّس علينا ولا يقرفنا في عيشتنا ولَّا حتى يعاكسنا" قالت: "آه محدش بيعبَّر حد هنا" قلت في استغراب: "إيه ده إنتي زعلانة ولا إيه" قالت: "لأ طبعا مش زعلانة، بس ساعات ببقى نفسي أي حد يلاغيني، يتكلم معايا، دانا ساعات بعدِّي أيام مش بفتح فيها بُقي.. ما بتكلمش خالص" كنت أرى نظرة من المرارة في عينيها وهي تتكلم وهي نظرة لم أرها أبدًا عندما كنّا صغارا.. هي مُنطلقة وساخرة وعندها قدرة على التأقلُم

Twitter: @ketab_n

مع الجِن الأزرق.. هي الوحدة إذًا.

نخرُج أنا ورضوى في البلد الغريب.. نخرُج ونرقص في حانات لا نعرفها ولا يعرف أسماءنا بها أحد.. نخرُج ونسخر من الجميع.. نتذكر أيام المُراهقة وفار تجاربها الصغير وسماعات الكاسيت الأحمر.. نتذكر كراهيتنا للمدرسة.. نشرب كل المشروبات المُتاحة والتي نمتلك المال لشرائها.. يأتي رجال للتعرُّف علينا بمنطق البلد الغربي، فنقطِّب وجهينا ونتشاور باللغة العربية ثم نبتسم ونرقص مع غُرباء لا نعرفهُم.. يغادر الجميع المكان ويتأخر الوقت فنقرر المشي حتى البيت.. نمشي ونمشي حتى تتكسر أقدامنا من التعب لنكتشف أننا ندور حول البيت في حلقات مفرغة منذ ساعتين.. يمضي الوقت في سُرعة فنذهب إلى البيت لننام وعلى وجهينا ابتسامات طفولية مُرهقة.. غدًا سنذهب إلى المسرح ثم إلى السينما ثم نذهب لنمشي في المدينة ورُبما نركب الحافلة أو القطار ونذهب إلى بلدة أُخرى.. أيامٌ نقضيها بلا حسابات حتى يأتي وقت الرحيل من جديد.

أتصل بأبي من هاتف رضوى.. الصوت مُتَقَطِع: "عامل ايه؟ وحشتني أوي؟ صحتك عاملة إيه" يقول في لهفة: "وحشتيني أوي يا نادية، حتيجي إمتى بقى؟" أقول: "خلاص هانت كُلَها كام يوم، إنت صحتك كويسة؟ قلبك كويس؟ فيه أي تعب أو أزمات؟" يقول وهو يضحك: "ما لكيش دعوة إنتي مش سيبتيني ورحتي لرضوى في آخر الدُنيا، خليها تنفعك" أقول له: "بابا بلاش هزار بقى، والنبي بقى تطمني عليك". يقول في

Twitter: @ketab_n

حنان: "آه يا حبيبتي أنا تمام، وصحتي زي الفُل، البت رضوى عاملة إيه؟" أقول: "كويسة وزي القردة وبتشرَّح في الناس في المُستشفى طول النهار وطول الليل بنصيع مع بعض" تسمعني رضوى أتكلم عنها فتتقافز في طفولة: "هاتيه أسلِّم عليه" أعطيها الهاتف وأسمع جانبها من المُكالمة: "أيوه يا عمُّو، وحشتني أوي، والله وحشتني بجد، ما جيتش مع نادية ليه؟.. طب إنت كويس؟ طبعًا حاجي أشوفك قريب.. خُد بالك من صحتك وما تخليش حاجة تعكِّر مزاجك.. حاضر يا عمُّو، حاضر والله.. وإنت كمان.. خُد نادية معاك اهيه" أُكمل المكالمة مع أبي.. أُغلق الهاتف لأراها تدخِن سيجارة في صمت بجانب الشباك.. أذهب إليها: "مالك في إيه؟" تقول في تأثُر: "أبوكي وحشني أوي يا نادية، وحشني وحموت وأشوفه وأقعد معاه زي زمان" أقول بابتسامة ضيقة: "ووحشني أنا كمان.. ياللا انزلي مصر بقى عشان تقعدوا تناكفوا في بعض زي زمان" تقول وهي تنفث دخانها: "مِصير الحيّ يتلاقى يا نادية"

في هذا الشتاء قررت أن أَقضي مع رضوى ليلة رأس السنة.. استقللنا الحافلة من البلدة الصغيرة التي تسكُن بها وقطعنا ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى نيويورك.. نرتدي كُل ملابِسنا.. كوفية وغطاءً ثقيلاً للرأس، سترتين ثقيلتين وجوارب صوفية لتدفئة أقدامنا من الصقيع.. كانت درجة الحرارة تصِل إلى ثماني عشرة تحت الصفر، وكنت أرتجف من البرودة فتقول لي إنها رأت أيامًا أكثر برودة "إنشفي شوية"، نترجل لتبدأ هي في الجريَ والتقافز في الشارع، أرتجف من البرد وأقول لها إنني حتمًا

Twitter: @ketab_n

سأتزحلق وسينكسر عُنُقي حالاً.. ترتعش أصابعي وأنا أُشعل سيجارة أولى، أُخرج يدي من القُفاز الصوفي، فأشعر بالدم يهرب من يدي، أُنفث أقل من نصف السيجارة وأُطفئها سريعًا لأهرب بيدي إلى القفاز مرة أُخرى، ندخل إلى أحد المطاعم الصغيرة لنأكل البيتزا.. نجد صاحب المكان مصريًا.. يهتف بصوت عالٍ: "الحِلو عليّا يا بنات، هابي نيو يير نضحك وتقول هي إنني أجتذب المصريين في كل مكان.. نخرج ونمشي سويًا في شوارع نيويورك الصاخبة.. كل أنواع وألوان البشر.. أجواء احتفالية تملأ الشوارع.. نجلس لنرتاح قليلاً.. "هنروح فين" أسألها وأنا أفرك يدي أملًا في بعض الحرارة.. "مش عارفة، حنفضل ماشيين في الشارع لحد ما الشمس تطلع.. حنسهر للصُبح" أقول في سُخرية: "شمس إيه.. هي دي بلد بتطلع فيها شمس؟" تصيح وهي تنهض من مكانها: "ده إنتي نكدية، قومي يا شيخة.. تعالي نروح نشرب قهوة" أنهض لألحق بخطواتها السريعة.. نشرب القهوة ونضحك. نقف لنأخُذ صورًا تذكارية مع أشخاص لا نعرفهم في الشارع.. ثم نقرر أن نذهب للتايمز سكوير.. الميدان الذي أسمع عنه في الأفلام الأمريكية: "عايزة أشوف الاحتفال في التايمز سكوير، مش فيه كورة كبيرة بتقع الساعة 12؟" تقول رضوى: "يا بنتي ده أي كلام، دي كورة تافهة والأمريكان الهُبل بيقعدوا يهللوا زي المجانين" قُلت في عناد "ما ليش دعوة، عايزة أروح، أنا مش دافعة دم قلبي في التذكرة عشان آجي وما أشوفش الكورة، قصدي التايمز سكوير تقول وهي تضحك: "طيب ياللا يبقى يا دوب نروح على هناك، الدُنيا بتبقى زحمة أوي" وقفنا نشاهد الاحتفال ونستمع إلى الموسيقى الصاخبة،

Twitter: @ketab_n

وبدأت أنا أعدّ الأموال المتبقية معي لأجدها دولارات قليلة، فأتنهد وأقول لرضوى: "لو ما كنّاش شحاتين بس كان زمانّا بنحضر راس السنة في حتة فخمة" قالت في مرح: "مفيش أفخم من كده، آدينا قاعدين على الرصيف مستنيين الكورة بتاعتك تقع.. بذمتك مش مبسوطة" أحتضنها وأخبطها على كتفها في مزاح: "طبعًا مبسوطة، كفاية إننا مع بعض" يرن هاتفي.. مُكالمة من مصر.. "أيوه يا بابا.. مال صوتك؟.. إيه اللي حصل؟ طب بس والنبي؟ إنت بتعيَّط؟ يا نهار اسود؟ امتى ده؟ طب إهدى بس" ينقطع الاتصال.. تسألني رضوى في قلق: "فيه إيه عمُّو ماله؟" أحكي لها عن تفجيرات حدثت في الإسكندرية منذ ساعات قليلة وعن أموات كثيرين، لا توجد تفاصيل ولكن يبدو أنها حادثة بشعة.. يسود الصمت لحظات.. "فيه ناس كتيرة ماتوا؟" أرُد: "يظهر كده، بابا صوته زي الزفت وبيعيَّط" تتنهد: "هي البلد دي مش حتنضف أبدا؟" أزجرها: "بس بقى ما تقوليش كده، ربنا يحرقهم كلهم اللي موسخينها.. مصيرها تنضف في يوم من الأيام" نتناسى الحادث ونحاول أن نستمتع بما تبقى من اليوم.. سعادة منقوصة أفسدها ما سمعناه من أخبار.. تدق الساعة الثانية عشرة ونرى الكرة تقع في منتصف الميدان.. نحتضن بعضنا البعض ونحاول التخفيف من الدراما قدر الإمكان.

Twitter: @ketab_n

18

يريد أبي أن يذهب إلى البلد، وأنا ذهبت مرات قليلة جدًا إلى البلد ولا أعرفها جيدًا، أعرف أن لنا هناك عائلة كبيرة، أفرُع مُتفرعة من جدودي وعمّاتي وأعمامي أولاد عمومة أبي وبناتهم وأولاد أولادهم.. رُبما لا تكون عائلة أبي من العائلات فاحشة الثراء بالبلد، ولكنها عائلة كبيرة جدا من حيث العدد والنسب والتفرعات.. لم آخذ من البلد سوى أنني "شرقاوية" وأنتهز أي فرصة لأذكر أصولي الشرقاوية التي تعني الكرم و"عزومة القطر في رمضان"، الأسطورة التي يتخذها أهالي البلد دليلاً ماديًا على الكرم غير المحدود.. كانت هذه هي علاقتي بالبلد، لا أذهب إلا نادرًا وغالبًا يكون هذا لحضور مناسبات فرح أو حزن كيفما اتفق.. أبي يريد أن يذهب إلى البلد، يصحو مبكرًا ويتصل بي قائلاً في تصميم: "أنا رايح البلد بُكرة وإنتي حتيجي معايا" أحاول إقناعه بالتأجيل حتى أقوم بترتيبات السفر، يقول: إننا سنسافر بالسيارة - بالطبع سنسافر بالسيارة - أنا لا أستطيع القيادة وهو توقف عنها منذ زمن، ولكننا سنسافر بالسيارة:

Twitter: @ketab_n

"عربية إيه يا بابا اللي حنسافر بيها؟ مين اللي حيسوق؟" يقول بنفس الإصرار: "نجيب سواق أعرف ولع أبي بالسفر بالسيارة، كان يحكي دومًا عن سفراته الطويلة بالسيارة عندما كان خارج مصر، وكُنت أنا أتذكر وأنا طفلة عندما كان يصطحبني مع أمي إلى المصايف البعيدة ويُصر على السفر بالسيارة، يقول إن هناك دُنيا تمُر خارج نافذة السيارة، وإنه يُحب أن يراها كل فترة حتى يعود إليها يومًا ما.

دبَّرت سيارة صغيرة تتسع لنا وذهبت في الصباح إلى مصر الجديدة ، يأتي أبي حاملًا حقيبة صغيرة ووجهه يمتلئ بالحماس، أعرف هذه الحالة من الحماسة التي تسبق السفر عمومًا، أشعر ببعض الضجر، لا أعرف لماذا نحن ذاهبون إلى البلد، كم يومًا سنقضي هناك؟ يركب أبي ويبدأ فورًا في توجيه السائق للطريق الذي سيسلكه.. يلصق وجهه في زجاج النافذة ويبدأ في الرغي دون أن ينظر إلي.. يحكي عن السفر بالسيارة، الأشجار والحقول والجاموس والطرق الصغيرة والمُدُن الريفية التي تصطف على الطريق، يحكي عن القهوة التي كان يذهب إليها وهو مراهق في شارع اسمه البوسطة، لم تعُد موجودة، بنوا مكانها عمارة أسمنتية حديثة من عدة طوابق، يحكي عن الأربعينيات، يحكي عن قصة حُبه لأُخت صديقه، من طرف واحد طبعًا، وعن الكتابات التي كان يتركها على باب دارها، يحكي عن جده وولده - خال أبي - الذي ذهب في بعثة إلى ألمانيا للدراسة وعاد طبيبًا فخورًا بنفسه ولكنه ثقيل الدم وسخيف ومُتزمت.. يحكي ويحكي، ثُم يكف عن الكلام ويظل دقائق صامتًا يتأمل الطريق من خارج نافذة السيارة.

Twitter: @ketab_n

أتثاءب، أحاول أن أحصل على ساعة واحدة من النوم قبل أن نصل إلى البلد، لا يترك لي هذه الساعة ويهزني في تصميم: "قومي ما تناميش، عايز أحكيلك على أهلك وعلى بلدك، قومي، ما انتي بتنامي في بيتك بالساعات ما حبكتش أقول في توسل: "ما انت حكيتلي مليون مرّة، مش كفاية واخدني على ملا وشي عالبلد، سيبني أنام" يقول وهو يغيظني: "لأ مش حسيبك، قومي وفوقي كده عشان متروحيش البلد وعنيكي فيها عماص" يعود للحكي مرّة أُخرى عن البلد، مقاهي ومدارس وشوارع وقصص لا تنتهي، بنى جده بيتًا كبيرًا في الزقازيق وظل خاله وأولاده يعيشون في هذا البيت حتى تزوجوا جميعًا، وتبقى منهم فقط من ترمل في نفس البيت، يحكي عن فخر خاله أنه لم يترك بيت أبيه أبدًا، وأنه يرممه كل فترة ويحرص على بقائه في حالة جيدة، يحكي عن زوجة خاله ذات المؤخرة الكبيرة التي كانت تُربكه، يقول ضاحكًا إن زوجة خاله كانت جميلة ولكنها كانت تكسر الفازات والأواني على المنضدة إن تحركت في مساحة ضيقة بسبب مؤخرتها الكبيرة.. أقول له في سُخرية إننا جميعًا قد ورثنا المؤخرات الكبيرة، وإن مُعظم نساء العائلة يعانين كبر مؤخراتهن.

يحكي ويحكي، ثم يكُف عن الكلام ثانيةً ويتنهد: "كانت أيام"، يسترسل أبي في رواياته عن أقاربه وعن طفولته وعن قريته الصغيرة الأقرب لـ "الكَفْر نصل أخيرًا إلى مدخل البلد، يقول أبي في سُخرية: "البلاد كلها بتتغير، إسكندرية بقت حاجة تانية، المنصورة وسوهاج بقوا بلاد سياحية، إلّا الزقازيق، ما

Twitter: @ketab_n

فيهاش ميلليمتر اتغير أُتمتم في خفوت: "مفيش حاجة بتستنى على حالها" نصل أخيرًا إلى البيت، بيت جد أبي الذي أصبح في ما بعد بيت خاله ثم تحوَّل الآن إلى بيت للعائلة، يُشبه في مضمونه بيت مصر الجديدة الذي بناه جدي من أجل الأبناء والأحفاد، ويعيش به الآن أبي وعمّاتي الأرامل.

دخلنا للبيت، استقبلتنا امرأة عجوز ظهرها مفرود، ترتدي جلبابًا أسود عليه أزهار زرقاء وغطاء رأس لا يخفي سوى جزء صغير من شعرها الأبيض كالقُطنة النظيفة، أخذها أبي بالحُضن وقبَّل كتفها، بالطبع لا أتذكرها، يقول لها: "فاكرة نادية بنتي يا راوية؟" تحتضنني وتقول بلا تكلف: "فاكراها، كبرتي يا بت يا نادية وبقيتي عروسة" أبتسم وهي تقبلني.. نجلس في "الريسبشن" أو في قاعة الاستقبال الواسعة، يهمس أبي أن هذه المرأة هي راوية ابنة خاله الكبيرة.. الجو خانق وهناك الكثير من الحشرات التي تلتصق بجلدي.. لا أريد أن أبدو مُتأففة، لا أريد مشاكل مع أبي.. هناك الكثير من الأطفال يلعبون في ساحة المنزل، ملابسهم قذرة من اللعب على الأرض وهُناك حشرات كثيرة تمرح حولهم، ولكن يبدو أنهم في مرحلة ما كان شكلهم أفضل وأرقى، الطين يغطيهم تمامًا ويبدو عليهم الاستمتاع الكامل بالقذارة والمرمغة على الأرض.

أطلُب من المرأة العجوز أن أذهب للحمام حتى أغسل وجهي من العرق وتُراب الطريق، تتعكز على ذراعي وتمشي معي إلى الحمام، تقف على الباب وتناولني منشفة نظيفة.. الحمام رائحته

Twitter: @ketab_n

جميلة ومُنعشة، رائحة صابون قديم تنبعث من كُل شيء، الأرض ممسوحة والبلاط قديم ولكنه بلا بُقع أو قذارة.. تسألني العجوز في فضول: "خلصتي جامعة يا نادية؟" ارتبكت قليلا، لا أعرف اللقب الذي يجب أن أُكلمها به، كلمة "طنط" تبدو مُبتذلة في هذا المكان، ولا أعرف هل هي بمثابة الخالة أم العمّة، أقول بابتسامة مُرتبكة: "آه يا عمتو، خلّصت" تسأل: "واتجوزتي؟" أقول بنفس الابتسامة: "لأ لسه" لا أجرؤ بالطبع أن أقول لها إنني أعيش وحدي مثل البنات الصايعة، أنتظر والصابون داخل عيني أن تُعطيني المُحاضرة الخاصة بالعنوسة وسُترة الزواج للفتيات، تقول في حكمة: "أحسن، ما تستعجليش، يعني هُم اللي اتجوزوا عملوا إيه؟ أهُم بناتي اتجوزوا وعيال عيالهم بيلعبوا برّه، غُلب وشيلة همّ، عيشي حياتك يا بنتي، بلا وجع قلب، أنا عاملة لك إنتي وأبوكي بطة عالغدا وصينية بطاطس حتاكلوا صوابعكوا وراها" أفتح عيني بعد غسلهما بالصابون لأجدها قد اختفت ..أعود لأجد أبي يجلس مع مجموعة من الرجال والنساء، شكلهم عادي للغاية، النساء على قدر محدود من الجمال، أعمارهُم في الستينيات ورُبما أكبر قليلاً.. العجوز هي أكبر من في المنزل، رُبما هي آخر من تبقى من هذا الجيل في العائلة.. ببعض الخيال أستطيع أن أتصور أنها قد تخطت التسعين عامًا، صحتها جيدة وعيناها مليئتان بالحيوية، تُذكرني بعمتي الكبيرة، جلدها مُكرمش وذراعاها رفيعتان كالمومياء ولكن عينيها فيهما قدر عظيم من الذكاء الفطري.

أُسَلِّم بمودة على المجموعة الجالسة مع أبي، تحتضنني النساء

Twitter: @ketab_n

ويبتسم لي الرجال ويشدُّون على يدي، أجلس بجانب أبي الذي كان قد بدأ يسأل عن أحوالهم وأحوال أقاربهم، من فترة لأخرى أسمع أحدهم يقول: "ده مات يا عمي من سنين" يرُد أبي في أسف: "يا حول الله، معلش" انقبض قلبي من الأسماء الكثيرة التي اتضح أنها ماتت.. نادتني العجوز لأقف معها بالمطبخ، قامت جميع النساء بشكل تلقائي لمُساعدتها.. تأخُذني لتُفرجني على البيت، هُناك غرف كثيرة، غُرف واسعة، تفتح إحدى الغُرف وتقول: "دي غُرفة جوزي، الله يرحمه، لسه كُل حاجة فيها زي ما هي الغُرفة كبيرة، كُلها من الخشب، سرير ضخم ودولاب كبير وسجادة نظيفة، توجد رائحة بخور بالغُرفة ومَسبحة على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، من الواضح أن لا أحد يدخُل هذه الغُرفة أبدًا، تقول لي العجوز: "لمّا الله يرحمه مات، أخوه كان عايز يبيع البيت وياخُد نصيبه، أصل البيت تمنه كبير، يتباع بالشيء الفُلاني، أنا وقفت له، ما حدش كان عايز يبيع بس إخواته ما كانوش عايزين يقفوا قُصاده، أنا قُلت له إنت ما لكش حاجة غير إنك تيجي تاخُد ضيافتك هنا، بس نصيبك؟ نصيبك في البيت ده الكابينيه، دورة المَيَّه، أكتر من كده ما لكش فيه، عايز تبيع الكابينيه إبقى تعالى وريني نفسك، ما قدِرش على طولة لساني وراح سِكِن في عمارة من العمارات الكبيرة، أوضة الله يرحمه بتتنضف كُل يوم، زي ما انتي شايفة بتُبرُق أهز رأسي في تأكيد لكلامها على نظافة الغُرفة، تأخُذني في اتجاه السلم الخشبي بمنتصف قاعة أُخرى داخل البيت، تفتح بابًا خشبيًا لا يظهر إلا عندما تفتحه: "دي الأوضه المسحورة، سميناها كده عشان جِدِك الكبير بناها جوه السلم،

Twitter: @ketab_n

واحنا صغيرين كان اللي يدخل الأوضة دي ياخُد علقة، أصلها كانت أوضته الخصوصية، كان صاحب مزاج بقى ويُقُعد يشرب فيها من غير ما حد يشوفه" تضحك بصوت عال: "كانت أيام، بس الله يرحمه ما كانش يحب يشرب أبدًا، جدك الكبير بس هو اللي كان يحب الشُرب، وأبوكي بقى من بعده، ورث عنه العادة المهببة دي، صاحب مزاج برضه" أضحك على أثر ضحكتها وأنا أتأمل "الأوضة المسحورة" غرفة ضيقة داخل السلم، توجد بها أريكة خشبية عليها فرشة إسفنجية مُهترئة مُغطاة بملاية مرسوم عليها ورود حمراء باهتة، مكتب خشبي قديم جدًا عليه كُتُب مكتوبة بحروف إنجليزية، لا يوجد أي شيء آخر بالغُرفة، وواضح أن العجوز لا تهتم بتنظيفها يوميًا مثل غُرفة "الله يرحمه"، نخرُج من الأوضة المسحورة، هُناك حمام صغير يلتصق بالسلم قبل الأوضة المسحورة، واضح أن جدي الكبير قد بناه حتى لا يضطر أن يمشي إلى الحمام الكبير عندما يكون مزاجه عاليًا.

أذهب معها إلى المطبخ، النساء منهمكات في أعمال عديدة، هناك من تغسل الصحون، وهناك من تُقلب إناء ألمونيوم كبير، تقريبًا به شوربة البطة السابق ذكرها، وهناك من تنشف الصحون التي تغسلها الأخرى، يتكلمن بصوت عال وفي نفس الوقت، هدأوا قليلاً عندما دخلت مع العجوز إلى المطبخ، قالت إحداهن: "ارتاحي يا ستّي، إحنا قربنا نخلّص" زجرتها العجوز: "ليه هو أنا مُت، ما أنا لسه بصحتي أهو تمتمن جميعًا في نفس الوقت أن يعطيها الله المزيد من الصحة، جلست على أريكة خشبية عريضة

Twitter: @ketab_n

أتفرج على العجوز وهي تعطي توجيهاتها لنساء العائلة:
"زوِّدي الفلفل عالشوربة شوية، البطة لسه وشها متحمرش كويس، الرز كويس غطي عليه عشان مينشفش، مين الخايبة اللي حشِت الحمام، ده نصه متفسخ والرز طالع منه" تسللت قطة صغيرة على رائحة الطعام الشهيّة، أنا لا أحب القطط، لا أحد يُحب القطط في عائلتنا، مسكت منشفة وهممت بهشها خارجًا، أمسكت العجوز بيدي فورًا في قوة وهي تقول في حدة: "سيبيها يا نادية، هي حتمشي لوحدها" ارتبكت: "آسفة يا عمتو، ما كنتش أعرف إنك بتحبي القطط أصلي ما بحبش القُطط خالص" قالت إحدى النساء وهي تُقلب الشوربة: "ما حدش في العيلة دي بيحب القُطط يا نادية، إنتي بس عشان مش من هنا ما تعرفيش أصل الحدوتة" تقول هذا وامرأة أُخرى تُلقي للقطة ببعض بقايا الطعام في حذر. تحكي لي العجوز عن حدوتة القطة المشهورة في الزقازيق.. يُحكى أن إحدى نساء العائلة - لم تذكُر اسمها تطيرًا - في زمن بعيد كانت تقف في مطبخها ودخلت قطة سوداء سمينة إلى المطبخ وخطفت فرخة من فوق رُخامة المطبخ، توترت المرأة فضربت القطة بالسكينة الكبيرة التي كانت تحملها، تقول الحكاية إن القطة انقسمت إلى نصفين دون أن تسيل منها نقطة دماء واحدة، وإن المطبخ امتلأ بالدُخان وفُتِحت حُفرة كبيرة في أرض المطبخ خرجت منها امرأة سمراء طويلة شخطت في قريبتنا وسألتها في مرارة وألم: "قتلتيني ليه؟" أستمع إلى القصة التي تقصُها عليّ النساء وهن منشغلات في عملهن بالمطبخ، تُكمل واحدة أخرى أن قريبتنا أُغمى عليها وفاقت لتجد القطة قد اختفت وكل أدوات المطبخ مُلقاة على الأرض، وإن هذه

Twitter: @ketab_n

السيدة ظلت في حالة نفسية غير مُتزنة، وتناقل الجميع القصة إنها عندما كانت تدخُل أي غُرفة من غُرف المنزل تتقافز الأشياء من أماكنها وتقع على الأرض، وإنها تظل تصرُخ في فزع شديد عندما يتركونها وحيدة، لأنها تعتقد أن المرأة السمراء سوف تعود لتنتقم منها.. منذ هذا اليوم وجميع نساء العائلة يكرهن القطط كراهية شديدة ولكنهن يعاملنها باحترام ولا يزجرنها أبدًا على سبيل الاعتذار للمرأة القطة.

أحد الرجال الجالسين مع أبي يحكي عن ابنته وزوجته التي تُساعد العجوز بالداخل بالمطبخ، يقول بفخر شديد إن ابنته تتعلم أحسن تعليم، وإنه "ما بيخليش في نفسها حاجة وكُل اللي بتطلُبه بيجيلها" يسأله أبي: "عندها كام سنه بنتك يا مصطفى؟" يرُد بذات الفخر: "عندها عشر سنين يا عمي" يقول هذا وينادي بصوت عالٍ على زوجته، تأتيه من المطبخ والمنشفة في يدها، يزجرها ويقول في حنان مصطنع: "كفاية بقى وتعالي ارتاحي، مش معقول كُل ما نيجي تفضلي واقفة على رجليكي كده" أندهش من طريقته التي أراها مُبتذلة، فجميع النساء يعملن بالمطبخ ويساعدن العجوز.. يقول أبي في ما بعد إن هذه هي طريقة بعض أقربائه الذين يحاولون الظهور بشكل راق وغير منتم لعادات الفلاحين، يقول إن هذا الشخص يتعامل مع ابنته وزوجته باعتبارهما جزءًا خاصًا به مثل قميصه أو فانلته أو لباسه الداخلي، وإنه يدللهما أمام العائلة ولكنه واثق أنه يعاملهما – أو على الأقل يُعامل زوجته – باحتقار في بيتهم.

Twitter: @ketab_n

يحكي لي أبي أن أمثال هذا القريب من جيل أبي كانوا يسببون له أزمة كبيرة وهو صغير، هو درك موروث، كان يخشى أن يمشي في ذات الطريق، أن يتزوج ويُنجب أطفالاً ويتعامل بشكل مُبتذل وأناني ويحرص على مظهرهم أمام العائلة، كان يخشى أن تكون هذه السلوكيات موروثة وأنه سيجد نفسه يومًا ما سائرًا على نفس الدرك.

نجلس جميعًا على سُفرة طويلة بعد أن حضّرت النساء الطعام وأدوات الطعام وساعدتهن في التحضيرات على استحياء، الكثير من الأحاديث تدور والعجوز تجلس على رأس الطاولة وبجانبها أبي وأنا بجانبه.. الطعام شهي، أتذكر جيدًا مذاقه، أنا سافرت كثيرًا وأكلت في بلاد مختلفة ولكنني لم أتذوق أبدًا مثل هذا الطعام، لم أتذوق طعامًا له مذاقه العظيم قبل أو بعد هذا اليوم.. الرجُل المصطنع يحشر الطعام في فم زوجته بنفس الحنان الزائف، طفلته مدللة وسخيفة وتتكلم بصوت عال ولا تتوقف إلا عندما ترمقها العجوز بنظرة مخيفة تُسكتني أنّا شخصيا.. العجوز مُخيفة ولطيفة في نفس الوقت، حضورها طاغ وتُسيطر على الجميع وإن كُنت قد سمعت النساء يتمازحن في ما بينهن أن "الولية دي كبرت وخرفت خلاص"

نستقل السيارة مع مشارف الليل عائدين إلى القاهرة، أبي يلصق وجهه في نافذة السيارة مراقبًا الطريق من جديد، أشعر أن الزيارة قد استنفدته، لا يتكلم كثيرًا، فقط يسألني إن كُنت قضيت يومًا لطيفًا في البلد، أرُد بالإيجاب وأقول إننا يجب أن نذهب

Twitter: @ketab_n

للبلد من حين للآخر ولا نغيب كثيرًا حتى نُحافظ على صلتنا بأقاربنا هُناك ويكون لنا "رِجل" في البيت فلا ينسانا الجميع يرُد: أننا سنفعل بالقطع، وأعرف من نبرة صوته أن هذه ستكون المرّة الأخيرة التي نزور فيها الأرض والبيت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

19

كان زِين عُمره خمسون عامًا بالتمام والكمال.. وكان عُمري عشرين عامًا.. كان يكتُب الشعر وكان رقيقًا ولطيفًا ويهتم بي اهتمامًا من نوع خاص.. لم يكن زِين متجعدا أو مترهلًا، ولكن كان عُمره خمسين عامًا.. ثلاثون عامًا تفصلني عن زِين.. طالبة جامعية بكلية الآداب تعقص شعرها وترمق الجميع بنظرات نارية.. دودة قراءة وحادة و"لسانها طويل" كما يصفني الجميع، تقع في غرام شاعر يكبُرها بثلاثين سنة.. كأنه إصرار على الدخول داخل القصة الإكليشيهية التي تنتهي بذات النهاية وتمُر بذات التفاصيل.. ولكن زِين كان ساحرًا.. كان رقيقًا وبريئًا.. وأنا لا أستطيع مقاومة براءة الرجال.. أحببت زِين وأحبني هو أيضًا.

لا أذكُر أين قابلت زين في المرة الأولى.. هل هي جلسة من جلسات المثقفين في أحد المقاهي بوسط البلد؟ هل تقابلنا في الأرجنتين على رصيف ملوّن والمدرعات الزيتية تجوب الشارع حولنا؟ هل

Twitter: @ketab_n

تقابلنا في حانة أمريكية ورآني هو من بين الراقصين والراقصات والموسيقا الصاخبة؟ هل التقينا في زيمبابوي على ضفاف الشلالات الساحرة ونحن ننظر إلى الحيوانات المتوحشة تتجول بجانب صفحة النهر؟ رُبما التقينا على شاطئ الصويرة والمياه تمتد أمامنا بلا نهاية.. لا أذكُر أين التقينا.. فقط أعرف أنني وجدت زين وأنه وجدني أخيرًا وأننا التصقنا منذ هذا الحين.. ولا أُريدنا أن ننفصل أبدًا.

كان زين شخصًا ممتعًا.. يجلس ليَقُص لي قصصًا جميلة ويتلوني أشعارًا حزينة.. نجلس سويًا على كنبة صغيرة ببيته.. أريح رأسي على فَخذه وهو يتلوني الشِعر.

من شرفتي كنت أراها في صباح العطلة الهادئ
تنشر في شرفتها على خيوط النور والغناء
ثياب طفليها، ثياب زوجها الرسمية الصفراء
قمصانه المغسولة البيضاء
تنشر حولها نقاء قلبها الهانئ
وهي تروح وتجيء
والآن بعد أشهر الصيف الرديء
رأيتها.. ذابلة العينين والأعضاء
تنشر في شرفتها على حبال الصمت والبكاء
ثيابها السوداء

أُغلق عيني وأقول له في خفوت: "زين، ينفع تقوللي حاجة ما

Twitter: @ketab_n

تبقاش عن الموت" يقبِّل رأسي ويقول في صوت منخفض:

عندما ينهض في وجه الشروق
ربما ننفق كل العمر
كي ننقب ثغرة ليمر النور للأجيال.. مرة
ربما لو لم يكن هذا الجدار ما عرفنا قيمة الضوء الطليق

التفت إليه وأبتسم في سعادة "أنا بحبك على فكرة يا زِين" يحتضنني ويقبل جبهتي ويتوقف الكون لحظات.

كانت علاقتي بزين علاقة سعيدة.. أُحب زِين وينطلق وجهي بالسعادة المُطلقة طوال الوقت.. أذهب لأنتظره تحت بيته.. نمشي سويا بخُطى بطيئة للغاية في شوارع وَسَط البلد.. يمسك بيدي ويقبِّلها أحيانًا في وَسَط الشارع.. وأنا مليئة بالفخر ومنتشية بلمساته.. أحيانا أشعر أنني أُحِب زين فقط لأنه شاعر وحالم.. علاقتنا مُستحيلة.. ولكن لم أكُن أبغي أي شيء من وراء هذه العلاقة سوى أن أظل أحب زِين وأن يُحبني هو ويتلو عليَّ الشِعر ويربّت على كفي عندما أكون متوترة أو تعيسة.

لم أستطع أن أُخفي علاقتي بزِين عن أبي طويلاً الذي فَطَن سريعًا أن هناك شخصًا ما في حياتي، قررت أن أحكي له التفاصيل.. أبي؛ هو شخص.. لا يشبه أحدًا، لا يشبهك بالمناسبة حتى لا تصدِّع رأسي بأنني أبحث عن رجُلي الذي يشبهك.. هي نظرية إكليشيهية لا تليق بي ولا تليق بِك.. فأرجوك ابتعد

Twitter: @ketab_n

عنها.. هو رجُل لطيف.. يتلوْ عليّ الشِعر، ويُحبني طوال الوقت وليس نصف الوقت أو بعضه.. هو رجل لا يشبه الآخرين كثيرًا.. وأنا وجدته وسأحتفظ به حتى أملُه أو يَملني أو يحدث ما يحدث فنفترِق.. لماذا تجد هذا صعبًا وسخيفًا.. لا تُحدثني عن عُقد الأب والبنت، فليس لديّ هذه العُقد، ولا أُريد رجُلاً يكبُرني لأراك في ظله.. فقط تقبَّل وجود زين أو لا تتقبَّلْه.. فهو باقٍ إلى أن أُقرر رحيلَه أو يُقرر هو رحيلي.

انزعج أبي كثيرًا من خُطبتي القاسية، ومن تقريري لرد فعله قبل أن أعطيه فرصة للكلام.. انزعج وظل ينظُر لي في سُكون.. وبعد دقائق من الصمت قال: "لما يقرر يمشي أو تقرري تمشيه ابقي قوليلي.. لو عايزة يعني نظرت له في استغراب، ولكني قررت أنني لن أتشاجر أو أنزوي في غضب أو أرزع باب غُرفتي كما كنت أفعل في سنوات مراهقتي.. فقط قُلت له: "حاضر حقولك" ولملمت أشيائي وذهبت بعيدًا.

ذهبت إلى زين.. وضعت حقيبة الظهر التي أحملها دائمًا وتحمل كل الأشياء الدقيقة التي أحتاجها في الساعات التي أبتعدها عن المنزل.. أخرجت علبة تبغي وولاعتي الملوَّنة الصغيرة التي أحضرها لي زين كي أكُف عن استخدام الكبريت الذي يبعث برائحة كريهة في المكان وطاوعته على الرغم من حُبي لرائحة الكبريت.. خلعت الجاكيت وطبقته في عناية ووضعته في الحقيبة وذهبت إلى زين الذي كان يُراقبني من موقعه الجالِس على الأريكة.. طبعت قبلتين على وجنتيه وكالعادة أرحت رأسي

Twitter: @ketab_n

على فخذه وتدلت ساقاي على الطرف الآخر من الأريكة: "زِين، أنا قلت لبابا على فكرة"

- "سمعتِ أغنية لفيروز اسمها جايبلي سلام؟"

"زِين، بقولك قُلت لبابا علينا"

- "طيب وايه المشكلة؟"

"مفيش مُشكلة بس بقولك"

- "طب سمعتي الأغنية اللي بقولك عليها؟"

"لأ"

- "عارفة بتقول إيه؟ بكّير طل الحب عا حيَّ لِنا.. حامل معو توبي وحكي ودمع وهنا كِنا وكانوا هالبنات مجمعين.. يامِّي ما بعرف ليش نقاني أنا" ابتسمت ومددت كفي لزِين يمسك به: "نقّاني ليه يا زِين؟"

- "عشان إنتي هو إنتي.. عشان لونِك بيلمع.. محدش عِرف يحط عليكي تُراب.. وأنا مراهن إن محدش حيعرَف يعمل كده" يزداد حُب زِين في قلبي.. أطبع قبلاتي على وجهه وأغمرُه بحُبي طوال الوقت.. أقضي ساعات قليلة معه، لا أستطيع أن أبتعد

Twitter: @ketab_n

طويلاً عن أبي.. أذهب إلى الجامعة وإلى زِين وأعود إلى أبي.. أرتمي في حُضن أبي، حتى وأنا أشعُر أنه لا يَطيقني بسبب صلافتي معه.. أرتمي في حُضنه في كل الأحوال.. ليس هذا اختيارًا، فعلى الرغم من أنني أسمع صوت أنفاسه غير مُنتظم ومتوترًا، إلّا أنني أستقِر في حُضنه يوميًا على الأقل مرتين.. أضع كل إرهاقي وأسباب توتري جانبًا.. أُنحي زحام الشارع والمدرجات والسيارات وإزعاج أبواقها على رُفوف جانبية.. حتى كلمات زِين أتناساها مؤقتًا لأستمتع بسلام الأكوان والمجرَّات في حُضن أبي.

Twitter: @ketab_n

20

أخذت معي معطفًا ثقيلاً.. لم أجِد معي نقودًا كافية.. قررت أن أذهب للمطار، هناك إشاعة تقول إن ماكينات الصرافة تعمل بالمطار.. أخذت كوفيتي الثقيلة التي تصحبني في سفراتي الباردة.. لديّ مطواة صغيرة اشتريتها من فتى في الخامسة عشرة من عمره وأتفاخر أنني أستطيع أن أستخدمها ببراعة إن ضايقني أحد.. لن آخذها معي.. هناك لجان تفتيش في كل مكان ولا أريدهم أن يأخذوها.. ودعت أبي: "أنا صحيت بدري وطبخت، عملت لك الخضار بتاعك وسلقت فرخة ومفيش عليها ولا ملح ولا فلفل اسود عشان الضغط والحساسية.. وفيه رز عملاه لك عالبخار هيعجبك أوي.. مش عارفة هعرف أرجع بالليل ولا لأ.. بس غالبًا هرجع عشان مش عايزاك تبات لوحدك" يرُد أبي: "طيب أنا مش هنزل، بس لو فيه فُرصة ترجعي تقوليلي إيه اللي بيحصل في وسط النهار إرجعي، أنا مش حقوم من قُدام التليفزيون.. الجرايد جت؟" قلت له: "لأ ما جتش وسيبك من الجرايد ما فيهاش حاجة، بص عالجزيرة وعلى أي

Twitter: @ketab_n

قنوات غير بتاعة التليفزيون المصري عشان مش حيبقى عليها حاجة.. هحاول أرجع في وسط النهار أو على العصر كده"

"خدي بالك من نفسك أحسن لك وبلاش تهور وطيش وجنان" أرد وأنا أحتضنه في قوة: "حاضر

أستقل سيارة أجرة وأذهب إلى المطار، ماكينات الصرافة الآلية تعمل بالفعل، أسحب بعض النقود ثم أتجه إلى التحرير.. الشوارع خاوية على عروشها، ينقبض قلبي قليلاً وأنا في الطريق.. هناك تعبيرات خائفة على وجوه الناس في الشارع.. الطريق الطويل الذي يؤدي من المطار إلى التحرير لا يوجد به سوى مدرعات ثقيلة ودبابات.. الدبابات شكلها مُضحك وهي تمشي في ثِقل وبُطء في الشارع.. لم نَألَف أبدًا وجودها بهذا القُرب.. يبدو الشارع مثل شارع في تشيلي أثناء الحكم العسكري.. لم أذهب إلى تشيلي ولكني رأيت الصور في كُتُب التاريخ، سائق التاكسي مُرتبك ويتمتم بكلمات مُبعثرة.. سألني: "انتي رايحة التحرير تعملي إيه" توجست من السؤال، رُبما يكون ناقمًا على الأحداث فينتقم من التحرير وما يحدث فيه في شخصي، قُلت: "لأ أنا مش رايحة التحرير، أنا رايحة عند واحدة صاحبتي ساكنة قُريب من الميدان" قال لي في استغراب: "وهي حبكت يعني؟ إنتي مش شايفة اللي حاصل؟ دول البلطجية ماليين البلد، وإنتي بنت، إنتي ما تعرفيش إحنا بنشوف إيه على الطريق، خُدي بالك من نفسك وما تتهوريش" قُلت في خفوت: "ربنا يُستُر" ترجلت على كوبري قصر النيل.. كان هناك لجنة

Twitter: @ketab_n

شعبية كبيرة، ربما خمسة عشر شابًا يقفون في صفوف منتظمة، هناك أيضًا بعض الفتيات.. يطلبون من العابرين إلى الميدان إبراز البطاقات الشخصية ويفتشون الناس ذاتيًا بابتسامة وببعض الصرامة أحيانًا.. تركت الفتاة تتحسس ملابسي وتنظر داخل حقيبتي الصغيرة وتنظر لي في تمعن.. ابتسمت ودخلت وهي تشير لي بعلامة النصر: "الحق معانا وربنا معانا". هززت رأسي موافقة على ما تقوله وبدأت أمشي داخل الميدان.

أبحث في لهفة عن ريما، أريد أن أجد ريما.. كنت قد رأيتها في اليوم الأول تجري من قنابل الدخان.. رأيت في ثوان معدودة شعرها الطويل المجعّد يتطاير وراءها وهي تقفز على أرصفة الميدان في محاولة أن تبتعد عن الدُخان وألا يصيبها الطوب المتطاير.. رأيت ريما أخيرا في الميدان شعرها منكوش وعيناها تلمعان بالحماس، احتضنتني: "انتي كنتي فين؟ بدور عليكي؟" أرُد في هدوء: "أنا لسه جاية، بابا عندي في البيت، عملت له أكل ونزلت سحبت فلوس وجيت على طول"، تقول ريما: طب ما تيجي نقعد شوية على جنب"، أمشي بجانبها حتى نصل إلى مدخل الميدان، نجلس على الرصيف، بعد أشهر من هذا اليوم أصبح هذا الرصيف ملاذنا، نرى من عليه مشرق ومغرب عشرات الشموس، نجلس صامتين لدقائق، أعرف الوجع بداخلها، هي تتفاءل مثل ما تتنفس، كما تصف نفسها: "عايزة تطير من على الأرض"، تنطلق بالحرية ، وتكتب ما تشعر به، تكتئب وتفرح وتتلخبط، وكل ذكرياتي في هذا الميدان تجمعني بريما.. جلسنا على ذات الرصيف وعلى كل الأرصفة.. أتأمل الميدان من حولي..

Twitter: @ketab_n

أتسلى بإحصاء الوجوه.. أتعب عندما أصل لبعد المائة.. أقول لريما: "هو إيه اللي بيحصل؟" تقول في إرهاق: "مش عارفة" الهتافات تتعالى كل فترة، العشرات من الباعة الجائلين، لفت نظري أحدهم يقف بطاولة خشبية مُسطحة عليها جوارب صوفية، أضحك وأقول لريما: "هُو الراجل ده بيبيع شرابات ليه؟" تقول في جدية: "عشان اللي حيباتوا يا نادية، مش معقول يباتوا بنفس الشراب، ده حيبقى ريحته وحشه أوي والاعتصام ممكن يتفض" أضحك مجددًا.. المدرعات تسِد كل مداخل الميدان، لا أحد يتحرش بنا في الداخل، حتى الجنود، يحاولون قدر المستطاع الابتعاد عن الاحتكاكات.. الشباب يحاول تجاذب أطراف الحديث مع العساكر، أرى بعضهم يعطيهم السجائر وزجاجات المياه المثلجة.. أنهض مع ريما ونذهب إلى فُرن بالميدان المُجاور.. نبتاع عشرات الأرغفة من الفينو الساخن، نشتري من البقّال كرتونة من زجاجات المياه وبعض العصائر، يعرض علينا المارة من الشباب أن يساعدونا في حمل الأكياس، نذهب إلى طرف الميدان ونقف بجوار بضاعتنا ونبدأ في توزيع المياه والخبز والعصير.. نرى الأكياس فارغة بعد دقائق.. أتنهد وأقول لريما: "نفسي في سيجارة ميريت" تنظر إليّ شزرًا: "إنتي مش حتبطلي دلع بقى؟ ميريت إيه، دخني الموجود يا نادية، دي مش ظروف دلع وسجاير مستوردة" أقول في حنق: "خلاص خلاص، أنا بقول بس، شفتيني يعني بدبدب في الأرض؟" تضحك وتجذبني لنذهب لنرى باقي أصدقائنا.. ليلى وجلال.. الجو هادئ في الميدان لا يُنذر بعُنف ولا ينذر بأي اشتباكات أو بأي شيء مخيف.. يجتمع أربعتنا على أحد الأطراف.. جلال

Twitter: @ketab_n

مُغبر وقميصه تغيَّر لونه من التراب والقاذورات.. ليلى متوترة، نتكلم جميعًا في ذات الوقت وفي لهفة.. نريد الاطمئنان أن جميعنا بخير.. لا نسمع شيئًا.. أشد جلال من يدِه.. أقول له في توتر: "طبعا إنت عارف إنك ما ينفعش تطلع من الميدان، الإشاعات برّه كتير إنهم بيقبضوا عالناس اللي طالعين من الميدان" يقول بابتسامة مُطمئِنة: "ما تخافيش يا نادية أنا عارف، مش طالع خالص دلوقت.. لمَّا نشوف بس حترسى على إيه" أنظر إليه وقلبي يمتلئ خوفًا.. أحاول أن أظهر مُتماسِكة، وأشعر في لحظة ما أنني أبالغ في كل مشاعري، خوف وترقُّب وتوتر.. ليلى متوترة ولكنها لا تبعث بذات الطاقة السلبية في الجميع مثل ما أفعل أنا.. يقول جلال ضاحكًا: "إحنا لازم نِدي لنادية حبايتين مهدئ عشان تبطل تتوتر كده.. حيحصل إيه؟ عادي، يمكن يتقبض علينا، ويمكن يضربوا الميدان كله.. ما حدش عارف.. والتوتر ده مش حيمنع حاجة" أقول له في غيظ: "مش إنت اللي قلت لي من خمس أيام مفيش حاجة حتحصل يا نادية، أهي مظاهرة وخلاص يا نادية، ما تتعشميش أوي يا نادية، ثورة إيه يا نادية بلاش أي كلام" قال في تأثر: "يعني وهو كان فيه حد ممكن يتخيل إن الناس دي كُلها تنزل؟". ربت على كتفه.. في قرارة نفسي لا أستطيع منع نفسي من التفكير في أبي، لا أريد أن أتركه وحده لوقت طويل.. سأذهب إليه، رُبما أعود عندما ينام وأطمئن أنه بخير.. أودع الجميع وأقبِّل جلال وأحتضنه في قوة.. يضحكون جميعًا على أدائي الدرامي فأسبِّهم وأذهب في طريقي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

21

كانت عمّتي الصغيرة تمتلك كشكًا صغيرًا لبيع الورد.. كانت ترسم وتصمم الحليّ الفضية وتلصق الأحجار الملوّنة الغالية أحيانًا في عقود وأساور وتبيعها للأصدقاء والأقارب بأسعار زهيدة.. كانت تفعل كل شيء، تُحب الألوان والأشكال الغريبة.. وتركت كل شيء فجأة.. عمتي لم تتزوج أبدًا.. منذ كُنَّا صغارًا وأنا أراها أجمل من في عائلتنا، جميلة وترتدي ملابس رقيقة مزيَّنة دومًا بالدانتيل.. تركت كُل شيء واشترت هذا الكُشك الصغير بنقود نصيبها من أرض جدي بالبلد عندما مات واتفقوا جميعًا على بيع جزء من الأرض.. لا يوجد من يرعى الأرض، ولكنها تستطيع أن ترعى الورود.. في سنواتها الخمسينية افتتحت كُشكها الصغير.. وبدأت تقرأ كثيرًا عن الورود.. بدأت بزراعة الأقحوان، لم أكن أعلم أبدًا من أسماء الورد سوى الليليان، ويعرف كُل من يُحاول التودد لي من رجال أن باقة من الليليان تجعل مزاجي رائقًا وتضع الابتسامة على وجهي ليوم كامل على الأقل.. ولكن عمتي تزرع الأقحوان، وهي زهرة رقيقة

Twitter: @ketab_n

غالبا يكون لونها ورديًا وقلبها أصفر غامقًا وشتلاتها متفتحة ومُبهجة.. الأقحوان اسم جميل ولكنه لا يشي أبدًا برقة الزهرة ودلالها.. تُرتب عمتي وردات الأقحوان في دقة وتضعهما في وعاء وترُشهما بالماء البارد.. تزرع النرجس الأصفر والسوسن والتيوليب والورد الأحمر البلدي الذي تنتشر رائحته القوية في كُشكها، ورد بلدي حقيقي وليس وردًا أحمر بلا رائحة أو روح مثل الذي كُنت أراه في محلات الورد الفاخرة.. تشتري السماد من أماكن غريبة وتوصي القادمين من بلاد برَّه أن يجلبوا لها البذور كي تزرعها وتصنع منها باقات ساحرة تخطف القلب.

وزين يجلب لي الزهور دومًا.. يذهب إلى كُشك عمتي ويبتاع لي باقة من الورود التي يُحبها هو ويضع في منتصف الباقة فرعًا واحدًا كبيرًا من الليليان ذي الشتلات المُغلقة.. أتلقف من يديه باقتي وأنا ملهوفة، أرى في كل وردة كلمة يقولها لي زين في لحظات صفائه.. أضع الباقة في الزجاجة الكبيرة في بيته.. وأوصيه أن يرشها بالمياه الباردة كُل صباح حتى تتفتح شتلات الليليان فأرى قلبها الغامق ينبثق إلى الأمام في لهفة مثل لهفتي على الحياة حينئذ.. أعتقد – وأتمنى أن أكون مُخطئة – أنني لم أكُن يومًا بذات الإقبال على الحياة مثلما كُنت وقت أحَبَني زين.

أشتاق اليوم إلى كلماته ورقته وعذوبة يديه وهي تتحسسني.. أتذكر هذه اللهفة إلى استنشاق رائحة الحياة، لم أكُن مُنهكة.. لم أكن أصحو كُل يوم لأتمنى ألا يبدأ يوم جديد.. أصحو مُشرقة وعلى وجهي ابتسامة بلا سبب.. أصحو في سلام، لا أسُب اليوم

Twitter: @ketab_n

ولا الصباح ولا اللحظات التي لا أعرف عنها شيئًا بعد.. أصحو مبكرة أتسابق مع اليوم حتى يأتي موعدي مع زِين.. هذا الرائق المُبتسِم المُسالم المُتَفهم السويّ الناضج الرائع.. لهذا يبدأ اليوم ولا أُريده أن ينتهي.. من أجل زِين ولهُ.. معه أكون أنا ولا أحد سواي.. معه أُريح جسدي وأعصابي وطاقتي المهدرة على زحام الشوارع وضجيج الأكوان مُجتَمِعة.. معه رائحة الليليان تخترق خلاياي.. معه أطمئن وأهدأ وأُغمض عيني في سلام بلا خوف من المرض والموت.. بلا خوف على من أُحِب.. زِين سيحميهم كما يحميني الآن.. معه أجد السكينة والراحة.. أدخُل في ترانس هادئ وهو يقرئني شعر الشعراء الآخرين:

لو أننا كنّا كغُصنيْ شجرة
الشمسُ أرضعتْ عروقَنا معًا
والفجرُ روّانا ندًى معًا
ثم اصطبغنا خضرةً مزدهرة
حين استطلنا فاعتنقنا أزرُعًا
وفي الربيع نكتسي ثيابَنا الملوّنه
وفي الخريف، نخلعُ الثيابَ، نعرى بدَنًا
ونستحمُّ في الشتا، يدفئنا حُنونا

أنام في أحضان زِين وأنا هادئة ومُبتَسِمة.. ولا شيء يهم أبدًا بعده أو قبله.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

22

يجب أن أكون قد أشعلت سيجارتي السابعة في تمام الثانية والنصف
وفي هذا الوقت لم أكن لاحظت أنني حزينة
بالتأكيد قد أغرقت نفسي في الأعمال اليومية
وبدون أن أعرف أي شيء، خبأت جزءًا من نفسي بعيدًا عن كل شيء
بالتأكيد غادرت في تمام الخامسة، لا يوجد استثناء لهذه القاعدة
هي مسألة روتينية أفعلها منذ انتهيت من الدراسة
أستقل القطار العائد للبيت
وبلا شك أكون قد قرأت الصحيفة المسائية في هذا الوقت
نعم، أعرف يقينًا أن حياتي كانت جيدة في إطارها المعتاد
في اليوم الذي سبق مجيئك

أستمع إلى أُغنية الآبا، وأنا أُفكر ماذا سأطبخ اليوم؟ علي سيأتي
للعشاء.. لا بد أن أطبُخ شيئًا جديدًا.. ملّ هو الطعام التقليدي..
يقول إنني أعد الطعام بروحي وليس بيدي.. وفي مرة قال لي
وهو حانق من طول إحدى سفراتي: "ارجعي بقى وحشتيني

Twitter: @ketab_n

ووحشني أكلك.. إنتي أي زفت بتعمليه بيبقى حلو يختار أحيانًا الكلمات الغبية للتعبير عن مشاعره ولكنني أفهمه ولا أتضايق أبدًا من كلماته الثقيلة.. لست أدري ماذا أطهو للعشاء؟ فتحت البرّاد.. يوجد دجاج مقطع شرائح.. أخرجته ووضعته تحت الماء الساخن.. لديّ بعض حبّات البطاطس.. علي يحب البطاطس المهروسة، ربما أضيف إليها بعض الجُبن.. لن أبدأ الآن.. ما زال اليوم طويلًا.. أشعل سيجارة بعود كبريت وأستنشق الدخان المُنبعث من علبة الكبريت في استمتاع.. أنظر من الشباك الكبير إلى الأفق الخارجي.. أتذكر "علي يأتي دائمًا عندما أقف في نفس المكان.. أنظُر إلى الخارج ويأتي هو من الخلف محتضنًا ذراعيّ، يُريح رأسه على كتفي وينظر بذات الصمت إلى الفضاء المقابل.. أبتسم وهو لا يراني، لا شيء يهم سوى الصمت، أتذكر اللحظات بيننا وأبتسم للحظة ثم أعبس مجددًا.. أعرف أنها لحظات زائلة.. وهو أيضًا يعرف هذا.. ولكنه لا يبالي، وهو يقول دومًا: "إفرضي صحيت الصبح حسيت إني مش عايز أجيلك.. مش عايز أكمِّل حاجة.. عادي، إيه المُشكلة" أقول في شفقة: "مفيش مُشكلة يا علي، بس دايمًا النهايات بتوجع يعني" يهز رأسه في أريحية: "عادي، المُهم يفضل بيننا نفس الحاجات الحلوة اللي بيننا دلوقت" لا جدوى من إقناع طفل صغير أن الحياة ليست بهذه البساطة، وأن النهايات موجعة وقاسية وتترك فينا آثارًا دامية.. لا جدوى من هذا، إن قلت هذا لعلي سيتقطب وجهه وسينزوي جانبًا وسيرفض الكلام معي وسأقضي نصف اليوم أحاول أن أصالحه.. فلندع اليوم لليوم، ولتأت النهايات في يومٍ آخر.

Twitter: @ketab_n

يأتي علي في المساء دومًا، عندما ينتهي من جلسات المقهى الصاخبة، أصدقاؤه الذين لا أعرفهم، أسمع الكثير من الأسماء ويحرص هو على إبقاء حياته في دائرة مغلقة من المستحيل أن أتسرَّب إليها، وأنا لا أسأل، وغالبًا لا أريد أن أعرف - يكفيني ما ضاقت به حياتي من تفاصيل مُربكة وقاسية، تكفيني الوحدة وظلام الغرفة، يكفيني السلام الذي أبحث عنه بين تتابعات الوشوش والابتسامات والقصص العابرة ولا أجده إلا لمامًا، تكفيني الأماكن القديمة التي كنت أذهب إليها، مقاهٍ وزوايا أصبحت مُقبضة، انفض من عليها الأصدقاء ما بين من تزوج ومن هاجر ومن سافر ومن اعتزل الجلوس على الأرصفة جمعاء، لا أريد أن أعرف ما ليس لي أن أعرف.

المُهم، أن "علي" يأتي في النهاية، يأتي ليحتضنني من عتبة الباب، يحتضنني في قوة، ربما لخمس دقائق، ربما عشر.. لا أشعر بالوقت مثلما كنت أشعر به في الماضي.. نأكل سويًا ولا ضرر من بعض الوقت أمام التلفاز، أبحث عن الأخبار وهو يمتعض ويلتقط جهاز التحكم ليبحث في لهفة عن أى شيء بلا عنف أو أخبار سخيفة ومقبضة، وعندما نجلس متلاصقين يقوم باحتضاني من جديد، ساعة أخرى؟ ربما اثنتين؟ ربما أقل، أعرف الوقت عندما أسمع أذان الفجر في المسجد المجاور فأعرف أنه لا بد من النوم، قبل النوم ربما نظل صامتين لدقائق غير معدودة، ربما نتكلم في مواضيع غير مترابطة، وإن كنت رائقة البال، ربما أبدأ في الحكي، وعلي يحب الحكايات، ويحب أن يسمع ما أقوله من قصص وانعكاسات وتحليلات.

Twitter: @ketab_n

أتذكر تفاصيلنا سويا ولا أشعر بالوقت، فقط أرى رماد السيجارة يسقط على الأرض وأشم رائحة الحريق السخيفة تنبعث من فلتر السيجارة الرابعة - أو هي الخامسة؟ أفتح التلفاز لأجد كمال الشناوي يحتضن شادية ويهمس في أُذُنها: "نوال.. انسي كل شيء دلوقت.. ما تفكريش في حاجة أبدًا.. ما تفكريش غير في اللحظة اللي بنعيشها سوا" أندمج في المُشاهدة وتمتلئ المطفأة بجانبي بأعقاب سجائري، شادية تُغني: "لسه الليالي جاية وأكتر من زمان" أرى هذا الفيلم للمرة الخمسين على الأقل.. وأتعاطف مع شادية الخائنة التي لا تعترف بنهاية قصة حُبها مع عشيقها الخائن، أتعاطف في ذات المشهد كُل مرّة.. هي النهايات بكُل أشكالها.. النهايات مؤلِمة خاصة عندما لا يعترف أحد الأطراف أنها بالفعل النهاية.. يظل يدور في هذه الحلقات المُفرغة من المحاولات والاستِجداء والغضب.. النهاية هي النهاية.. يقشعر جلدي عندما أُفكر في النهايات.. أطفئ سيجارتي السابعة وأمسك بذراعيّ وأحاول أن أنفض عن ذهني كُل أفكار الرحيل والموت.. وهُما لا يفرقان كثيرًا عن بعضهما البعض.. الرحيل هو الموت لي.. عندما يرحل من أُحب يُترجِم هذا عقلي الباطن أنه قد مات.. فهو لن يعود.. والذاهبون إلى الموت لا يعودون أبدًا.. لهذا يقوم عقلي بدفسهم في منطقة مُظلمة هي أقرب للتُربة.. الذاهبون لا يعودون والثلج الآن قد ذاب تمامًا عن الدجاجة ولا بد أن أبدأ الطهو حتى لا تفسد.

Twitter: @ketab_n

23

أعرف "علي جيدًا، هو كالأطفال، يستمع إليّ وهو يمتلئ بالفضول والشغف، يريد أن يعرف أكثر وأكثر، فعندما أسكت يرجوني أن أكمل ما بدأته من حكايات، أصبَحت كشهرزاد في القصص، لا بد من قصة تجعله مترقبًا وسعيدًا وأحيانًا مرتبكًا، لا بد من القصة حتى لا يمَلّني ويمَل العشاء ويمَل التلفاز ويمَل التصاقنا ببعض بعد جلسة المقهى.. وهو لا يحكي أبدًا، وعندما يحكي لا يقول ما يشابه شهرزاد الحزينة، فهو كالطفل ، إن سألته أمه هل تحبني أكثر أم تحب هذه اللعبة سيجيب بكل حماس: "بحِب اللعبة أكتر عشان حلوة ومش بتزعقلي ..هو كالطفل أو أكثر خرقًا، يتحدث عن الملل ويتحدث عن فقدانه للمشاعر وهو بجانبي أحيانًا، يتحدث عن أخطائه وخطاياه وربما يحملني المسئولية أحيانًا، وأنا أغضب كثيرًا، وأحيانا أنهض في انفعال لأغلِق الباب الوحيد في بيتي الضيق، أذرف دموعًا قليلة ثم أغسل وجهي وأخرج كأن شيئًا لم يكُن، أفعل ما أفعله ليسكُت أيامًا طويلة عن الكلام خوفًا من غضبة جديدة

Twitter: @ketab_n

أو خوفًا من إحساس بالذنب يطارده وهو جالس على المقهى في دائرته المغلقة.

وتبقى الشوارع كالعادة ويبقى سقف الغرفة، ويبقى الوقت، مملاً بطيئًا، يمضي فوق جسدي كأنه يحفر بعقاربه أرقامه، يبقى الموت حاضرًا في سكين المطبخ، في النافذة الواسعة التي تدعوني كل يوم في إغراء شديد أن أرى المشهد معكوسًا ورأسي إلى الأسفل، يبقى حاضرًا في إيشارب رقيق أرتديه ليدفئني فيدعوني إلى لفه حول عنقي في قوة، حاضرًا في السيارات المسرعة التي أتفاداها في كسل فأستمع إلى السائقين بعدها يشخطون في ذعر، حاضرًا وموجودًا في كل ما هو حولي من أشياء، أتراني فقدت القدرة على الحكي أم على الموت البطيء؟ لا أعرف ولكنني خائفة من تداعيات المشاهد التي تعبر عقلي كل يوم، أخشى أن أفقد مقدار الخوف الباقي في عقلي، أخشى أن أتحلى بقيراط الشجاعة الذي ينقصني ليكتمل المشهد.. لا أنتظر "علي" كثيرًا، ولا أعتقد أن رؤى الموت ارتبطت به، أرى الموت منذ أغمض جدي عينيه ورقدت بجانبه حتى جاء المعزون في الصباح.

وعلي يأتي، يتأخر أحيانًا أيامًا، أو أُسافر أنا أسابيع قليلة، ولكنه يأتي، ربما نتشاجر لأسباب واهية، وربما نصمُت فقط، ولكنه يأتي.. يأتي بحُضن عتبة الباب في قوة، لم أمَل أبدًا حُضن عتبة الباب، وهو لم يكن أبدًا مُكررًا، سريعًا كان أم طويلاً، قاسيًا كان أم رقيقًا، صاخبًا أم هادئًا، رومانتيكيًا أم عابرًا، إنه حُضن عتبة الباب الذي يجب أن يخلد كأغاني البيتلز التي يحبها هو أو

Twitter: @ketab_n

أغاني الآبا التي أُفضلها أنا.

يأتي علي حينًا ويغيب أحيانًا، والسعادة مثله، تأتي معه في أيام مختارة، فيكون العشاء شهيًا، والأخبار مبهجة بالتلفاز، ونكاد نلتصق على الأريكة فنصبح شخصًا واحدًا. تأتي السعادة أحيانا مع علي، فتشرُق شمس خافتة من النافذة العريضة، وعندما يكون رائقًا، أراه روحًا وقلبًا من عينيه الطفوليتين الكبيرتين، وعندما يكون رائقًا، يحكي بلا خوف وبلا هواجس، أو يحكي كل الهواجس معًا في سلام وتصالح مع الكوكب، وعندما يأتي يروق اليوم ويمضي في نعومة غريبة كأنها ساعات مسروقة من الدهر كله لا يفسدها سوى لحظة الفراق.

بيننا كل شيء، بيننا الأحلام واللحظات والسعادات والدفء والطرق المشتركة والأكوان الافتراضية، بيننا يوجد كل شيء في مساحة ضيقة للغاية، ضيقة لأننا ملتصقون بصمغ قوي اكتشفناه سويًا واخترنا استخدامه حتى ونحن نعرف جيدًا أننا إن حاولنا انتزاعه سنتألم كثيرًا، الألم كلمة عامة لا مذاق لها.. الألم كلمة غبية لمن يعرف الألم، الألم هو ما قد نأمل يومًا أن نشعر به، إن قارناه بما يحدث بيننا الآن.

بيننا كل شيء، بيننا نحن، بيننا ما كنَّا لسنوات، بيننا خبراتنا وحياتنا وأصدقاؤنا وأقاربنا، بيننا جسور متهدمة اخترنا في اللحظات الأولى أن نهدمها تمامًا حتى لا تكون بيننا مسافات، بيننا "أضواء صفراء خافتة"، بيننا لحظات فراق ولحظات لقاء،

Twitter: @ketab_n

هل رأيت يا علي مِن قبل من يبتعد عمدًا من أجل لحظة اللقاء؟ وبيني وبينك كتابات، كتابات كثيرة وكلمات تلفت الانتباه ويراها العالم، بيننا طفولة وزفرات خجل واكتشافات متعددة، بيننا كل شيء في أضيق المساحات وإن كُنا يومًا نُريد لتلك المساحات أن تبقى فهي قد بقيت ضيقة، لا يوجد أي فراغ أو أرض خاوية أو خواء بيني وبينك، هو الالتصاق على السحابة التي صنعناها معًا ولا سواه.

بيننا زهور الليليان البيضاء وبيننا صندوق صغير ملوَّن أضعه أمامي ليلاً ونهارًا، نحفظ فيه الذكريات في حرص حتى لا تنفد أو تأكُلها الأيام.. بيننا شخوص لا حصر لهم، شخوص كالخيالات لا دور لهم سوى المشاهدة وفرض عالمهم الغريب علينا، بطُرُقهم وكلماتهم وعاداتهم وأدائهم، بيننا هم والمقاهي والجلسات التي تجُرنا نحو عالمهم ونحن في مقاومة مستمرة.. بيني وبينك يا علي عيناك التي نفدت مني المفردات اللغوية والأدبية وأنا أحكي عنهما، نفدت المفردات ولم تنفد الحكايات، فكيف تنتهي الأحلام وكيف تنتهي العوالم الخيالية؟ الخيال لا ينضب وكذلك عيناك يا علي.

لا أستطيع أن أُقارن بين ما كنت أشعر به مع زين وما يحدث بيني وبين علي.. زين كان الأمان.. أرقُد على فخذُه فيتهادى الكون من حولي.. لم أشُم أبدًا هذه الرائحة العطنة بالمطبخ أيام كنت أرقد على فخذي زين.. الآن أجد أشياءً غريبة.. هناك أبو شبت.. تقريبًا قد أقام بيتًا صغيرًا في مطبخي، أُطارده يوميًا بالمقشة،

Twitter: @ketab_n

وهو صغير جدًا، لا أكاد أراه، وإن بربشت بعينيّ، يختفي أبو شبت لأعود فأجده بعد أيام في بيته خلف البرّاد.. لم أر أبدًا أبو شبت عندما كنت أرقد على كنبة زين.. هناك رائحة عطنة تظهر في مطبخي في بعض أيام الأسبوع.. الرائحة تأتي وتذهب.. ولكنها تعود مرة أخرى، أبحث في زوايا المطبخ القليلة عن مصدر الرائحة ولا أجده، أحيانًا أجد ثمرة طماطم عفنة ملقاة في مكانٍ ما.. أحيانًا أُخرى لا أجد شيئًا على الإطلاق.. فقط الرائحة.. عليّ لا يشم الرائحة أبدًا، أستخدم كل أنواع المُنظفات والمُطهرات.. وجدت مرتين أو ثلاث مرات صرصورًا كبيرًا يتمشي في بطء وثقة على عتبة المطبخ.. كان علي موجودًا في إحدى المرات وفزع من الصرصور، ولكنه قتله وألقاه في المرحاض.. عندما تأملت جُثة الصرصور لم أفهم من أين جاء، أنا أسكُن في طابق عال ولا يوجد أي مصدر أو فتحة بشقتي يأتي من خلالها الصرصور.. لم أر أي حشرات مقززة أبدًا عندما كنت أرقد على فخذي زين.. لم أر حشرات أو أشُم رائحة كريهة.. فقط كنت أرقد على فخذي زين في روقان وأستمع إلى ما يتلوه عليّ من أشعار.. أمشي معه في الشارع مُمسكًا هو بيدي في سلام، كنت أتشبث بزين والآن علي يتشبث في ملابسي حتى يملها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

24

أحكي لرضوى على ما يحدث.. نتكلم عبر برنامج حديث على الكمبيوتر.. أتذكر زين وأتنهد.. تقول لي في حدة أن "علي طفل وأنه سيكسر قلبي وأنا أقول إنني أعرف هذا جيدًا.. أقول لها إنني أتوقع كُل تصرُفات علي وأنني أنتظر اليوم الذي سيكسر فيه قلبي.. أقول لها أنني لا أعرف إن كُنت سعيدة أم تعيسة.. لا أستطيع تحديد مشاعري.. أعرف أنني أرى أعيُن علي في كل مكان.. أراه في مرآة الحمام وأنا أغسِل أسناني في الصباح.. أراه قادمًا على عتبة الباب.. أرى عينه السحرية تنظر لي وتراقبني في كل تفاصيلي.. أتذكر زين.. أبكي قليلاً وأنا أتكلم مع رضوى.. تنفعل هي وتقول إنني أصبحت ليِّنة ولم أصبح بنفس قوة الماضي: "راحت فين نادية اللي كانت بتهش الرِجالة الانصاص من حواليها، ده نُص يا نادية، مش راجل على بعضُه، فُكك منه واتنفسي، إنتي شابكة نفسك شبكة صعبة.. أقُولِك.. قولي له باي باي.. تعرفي تقولي باي؟" أضحك وأنا أشعُر بالاختناق: "لأ مش عارفة أقوله باي، حستنى لمَّا يقول هو باي" تقول في عصبية:

Twitter: @ketab_n

"خلاص خليكي بقى إهري في نفسك كده لغاية ما يطقْلِك عرق"
لم تعرف رضوى وهي تستخدم هذا التعبير المجازي - طق العِرق - أنني صحوت بعد أشهر قليلة من هذه المُحادثة أشعر بكُلكيعة غريبة في رقبتي.. وعندما نهضت لأنظر إلى وجهي في مرآة الحمام، وجدت أن هناك عِرقًا كبيرًا برقبتي منتفخًا بشِدة ولونه أحمر كالدم، تحسست يومها العِرق وتمتمت في سُخرية: "أهو اللي قلتيه حصل يا ست رضوى عشان تبقي تتبسطي

أصحو أيامًا لأجد كُل من حولي قد ذهبوا.. رضوى في الطرف الآخر من الكوكب.. "علي".. هو لم يكُن موجودًا أبدًا ليذهب.. ماتت أُمي وهي لم تكُن أبدًا موجودة أيضًا.. مثل علي، كان وجودها جاثمًا على وجودي ولكنها كانت دومًا في عالم آخر موازٍ.. أبي.. سأذهب إلى أبي.. في صباح قاتم يمُر مثله كثيرا أُقرر الذهاب إلى أبي.. أحادثه بالتليفون .."صباح الخير يرُد: "مال صوتك يا نادية؟" أقول: "مفيش.. مخنوقة، ما تيجي نتغدى سوا؟"

"طيب عدّي عليَّا وتعالي نتغدي هنا في مصر الجديدة"

"تمام، حكون عندك بعد ساعتين، حقوم ألبس ومسافة الطريق" أُغلق الهاتف وأنا أشعر أنه لا يزال يوجد من أستطيع أن أتكلم أو حتى أصمُت وأنا جالسة معه بلا قلق.

أرتدي ملابسي وأركب سيارة الأُجرة، أراقب الطريق كعادتي،

Twitter: @ketab_n

أجتاز الكوبري المُزدحم وأنا أتفرج على لافتات الإعلانات.. وردة تُغني في الراديو ويشوب صوتها التشوش "وإنت عارف ما إنت عارف، قد إيه كتيرة وجميلة العيون السود في بلدنا يا حبيبي بحِبك" إعلانات كثيرة أراها من فوق الكوبري، علب سمن كبيرة وملابس داخلية وملابس محجبات وآيس كريم ووردة تشدو - "لا الزمان ولا المكان قدروا يخلّوا حبنا ده يبقى كان.. كل ليلة من ليالي البُعد عدت عليّا وانت مش جنبي يا روحي يا نور عينيه" - أخيرًا كِدنا نصل إلى البيت.. يدخل السائق إلى مصر الجديدة.. كُل شيء قد تغَير بمصر الجديدة.. محل نيو كمال الذي كنّا نأكل عنده سلاطة الفاكهة ونحن أطفال تحوّل إلى محل كبير يبيع مستلزمات الهواتف المحمولة، المكتبة الكبيرة التي كنت أشتري منها أدواتي المدرسية تحولت إلى محل للأسماك - "قد كل كلام في الحب اتقال في الصبر اتقال أحبك ليلي وأنا سهران سنين ما بنام وبقول موال بحِبَك" - أترجّل من سيارة الأُجرة أمام البيت، أقف دقائق أمام الحديقة الكبيرة بالخارج.. لا أريد الدخول، ستُقَطِمني عمتي، وستقول: "مالك يا نادية، ما تسيبي أبوكي في حاله بقى، إنتي مش عارفة إنه تعبان، كفاية سنكحة في الشوارع بقى واقعدوا اتغدوا هنا" وأنا أريد أن أبكي، قدرتي على البكاء محدودة، أشعر بالدموع تقف في داخل عيني، ولا أريد أن أبكي أمام عمتي الكبيرة التي سيأكلها الفضول لتعرف سر بكائي.. أقف أمام البيت لا أعرف ماذا أفعل، يلمحني أبي الجالس في الحديقة على كرسيه كالعادة.. يشير لي أن أدخل وأنا أضع أصابعي أمام فمي، مشيرة له أن يسكُت وأشير له أن يأتي هو من باب الحديقة.. يضحك في خبث ويذهب دقائق

Twitter: @ketab_n

ثم يأتي ليفتح القِفل الكبير على باب الحديقة الحديديّ، يخرج ليحتضنني في قوة: "بتهربي من عمّاتك يا كلبة" أرُد في وجوم: "معلش مش قادرة أشوف حد، تعالى نشوف مكان نقعد فيه" نتمشى سويًا وهو يتأبطني.. كبِر أبي.. أصبح رجُلاً مُسنًا، هو لا يظهر عليه العجز لهذه الدرجة، ولكنه كبر.. هو في سبعينياته، قلبه معتل وأنفاسه ليست مُنتظمة.. أحيانًا أصحو من نومي قبل الفجر لأجد صوت أنفاسي يشبه صوت أنفاس أبي.. لدينا ذات الأمراض، ضعف عضلة القلب، حساسية الصدر المُزمنة.. نُدخن بشراهة، هو قد أقلع عن التدخين منذ سنوات.. وإن كان لا مانع من سيجارة من حين لآخر.. أما أنا فأُدخن أربعين سيجارة يوميًا.. أستمتع وأنا أحرق صدري.. وهو يغتاظ عندما يراني أُدخن: "حتموتي وشرايينك كُلها حتتسد وحتشوفي أقول ضاحكة: "كلنا حنموت يا بابا ما تدُقش" نمشي ببطء في شوارع مصر الجديدة التي لا يزال بها بقايا سحر قديم.. تجلس امرأة عجوز تبيع الخضروات على الرصيف، تبتسم لأبي وتشير له بيدها العجوز، يقول هو في انطلاق: "إزيك يا سمسمة، مالك إحلويتي كده ما تتجوزيني بقى؟" تبتسم المرأة العجوز في خجل: "صباحك قشطة يا أستاذنا، بطل شقاوة بقى" يضحك في مرح.. يلتفت لي: "مالِك يا نادية؟ فيه إيه؟ مين ابن الوسخة اللي مضايقك؟"

"فاكر الشخص اللي حكيت لك عليه؟ علي

- "فاكرُه طبعًا، الواد اللي انتي بتحبيه.. طلع أي كلام ولا

Twitter: @ketab_n

إيه؟". أقول في ضيق: "بابا متخليش المواضيع مُسَطَحة كده، أنا متضايقة بجد ومخنوقة" قال بذات الحنان الذي عهدته به منذ كان عُمري أشهرًا: "بصي يا نادية، أنا قُلت لك زمان، لو بتحبي راجل خليكي معاه، لو الراجل ده ابن كلب وانتي بتحبيه خليكي معاه.. لو الراجل ده ملك ولا شحَّات.. لو بتحبيه خليكي معاه، لمّا تبطلي تحبيه سيبيه.. الحِسبة بسيطة، ما فيهاش عُقد، إنتي بتحبيه ولا لأ؟" أقول في تردد: "آه بحبه، بُص ما أعرفش مش متأكدة"

– "لو مش مُتأكدة يبقى مش بتحبيه، بُصي، فاكرة لمّا حكيتي لي على زِين أنا كنت متضايق إزاي؟" قلت في سخرية: "ودي حاجة تتنسي؟ دانت كُنت قالِب وشك في وشي طول الوقت"

– "أيوه، عشان أنا عارف إنك كُنتي بتحبيه، وعارف إنك حتسيبيه في يوم من الأيام وإنتي لسه بتحبيه، أو بمعنى أصح كُنت عارف إنه حيسيبك، مش عشان هو راجل وِحِش، بس عشان الظروف.. بس أنا أكتر حاجة كانت مخوفاني ومخلياني قالِب وشي زي ما انتي بتقولي إنك كنتي بتحبيه أوي، أصل ده كان واضح.. وعلى قد الحب ده كنت خايف قلبك يتكسر قلت وأنا أنظر إلى أقدامنا ونحن نتمشى: "أيوه يا بابا، أنا كُنت بحب زِين أوي ولسه بحبه على فكرة، بس خلاص أنا دلوقت بفكر في علي

– "شُفتي؟ أديكي حتّى مش قادرة تقولي إنك بتحبي علي

Twitter: @ketab_n

- "هو اللي محتاجلِك يا عبيطة، إنتي بتبسطري نفسِك يا نادية، علي صُغير، مش على مقاسِك، زِين كمان مكنش على مقاسِك، كان كبير عليكي

"ما تسيبك من موضوع السن ده عشان دمه تقيل، ده غير إن باب النجّار مخلّع يا بابا، ما تخليني أتكلم بقى" قال في جدية: "أنا مش بتكلم عالسن، نادية إنتي عُمرك ما دخلتي في حاجة وانتي مغمضة عنيكي، إنتي على طول أعصابك تعبانة وشايلة الهم، شايلة هم الراجل اللي في إيدك.. ماتشوفيلك راجل يشيل همّك شوية؟"

"مالَك يا بابا، هو إنت متعرفنيش ولا إيه؟ مش هرتاح مع راجل أشيِّله همّي قال في حدة: "متهيألِك، ده بس عشان الانصاص اللي إنتي بتقعي فيهم" ضحكت: "لسه رضوى كانت بتقول نفس الكلمة دي وأنا بكلمها"

"طب سِيبِك من ده كله، إنتي إيه اللي مضايقك من علي؟ واضح إنك مش عايزة تمشي وتسيبيه، إيه بقى اللي مضايقك؟ فيه حاجة ممكن تتصلح؟" كانت أنفاسه قد بدأت تتعالى، جذبته إلى مطعم قريب تعودنا أن نتناول به الغداء.. جلسنا في المنطقة المفتوحة بالمطعم.. طلبت قطعة من اللحم المشوي، وطلب أبي الخُضار المسلوق، قلت له مازحة: "بذمِتك الخضار بتاعهم أحلى

Twitter: @ketab_n

ولا الخُضار بتاعي؟" قال: "أكلك أحلى عشان بتعمليه من قلبك، همّ هنا بيقضُوا واجب" وجمت قليلا.. قلت لأبي: "عارف؟ المُشكلة إني عارفة إنه حيسيبني، عارفة إنه مش معايا، وإنه بيجرّب حاجة جديدة عُمره ما شافها قبل كده.. عارفة ده كويس، بس مش عايزة أسيبه أنا الأول.. خليه ياخُد التجربة كُلها، هو ده اللي هو محتاجله.. حقُه برضُه" قال أبي وهو يبتسم: "بطلي تتعاملي مع كُل اللي حواليكي على إنّك أُمُهم، آخر حد قريّب منك شفتك بتتعاملي معاها بشكل طبيعي هي رضوى، غير كده كل الناس بالنسبة لك ولادك.. علي مش ابنك، وتجربته هو مسئول عنها لوحده، ما تضحيش بنفسك وبمشاعرك عشان هو يكبر ويبقى راجل، ده هبل، ولعلمك حتتعوري في الموضوع ده جامد وأنا بقولك أهه، وساعتها حموتهولك عشان ترتاحي" ضحكت ضحكة عالية: "يا جامد إنت يا متوحش، لأ خليه يجرّب، هو زي ما انت قلت مش على مقاسي، بس أنا مش عايزة أسيبه، خليه يخوض التجرُبة كُلها وأنا أوعدك إني هحاول متعورش أوي" ربّت على كفي وقال: "عيشي يا نادية، الدُنيا والعُمر بيجروا بسرعة، كلامي يمكن سمعتيه قبل كده، بس والله زي ما بقولك، بنبَربِش وبنلاقي نفسنا كبرنا.. عيشي وما تخليش حد يحبسك في مشاكله"

"حاضر يا سيدي، كُل بقى عشان الأكل بِرد" أكلنا كل ما في أطباقنا ومر اليوم دون أن أبكي كالعادة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

25

كانت رضوى تكره السياسة، كانت تتكلم في أضيَق الحدود عما يحدث في البلد.. كانت بالطبع في نفس المُعسكر الذي أنتمي إليه.. ولكنها كانت دائمًا ترى أنه: "مفيش فايدة يا نادية، الموضوع كبير.. مفيش فايدة" كانت هذه الـ"مفيش فايدة" تستفزني بِشِدة، أسمعها من كثيرين حولي، هُناك آراء كثيرة ترى أنه لا فائدة من كل ما يحدُث، ولكن الـ"مفيش فايدة" التي تأتي من رضوى كانت تشعرني بالفشل، كانت مرارتها تدُق الوجع في قلبي.. وكان جلال على عكسها تمامًا.. جلال يفهم السياسة أكثر مِني وأكثر من رضوى، كذلك ريما، كانت مثل جلال ترى أن "فيه فايدة طبعًا"، أما ليلى فكانت على الحياد، مُترقبة وحائرة ولا علاقة لها بالسياسة إطلاقًا، هي أكبرنا وأكثرنا بُعدًا عن السياسة وعن حركة الشارع.. فقط ترى أنه: "لازم يكون فيه فايدة عشان ابني، مش حينفع يبقى مفيش فايدة" أما أنا، فكُنت أميَل إلى التشاؤم.. عندما أفكِر بشكل منطقي وعقلاني، أجدني مضبوطة على نفس موجة جلال، أرى أن الوضع مُبَشِر، وعندما أُفكر فينا

Twitter: @ketab_n

كنماذج لبشر يعيشون في هذا البلد، أرانا بالبلدي كده "حظِنا قُلَيِل" من الصعب أن ننجح في تكملة الشيء إلى آخره، نحن ومن حولنا من وجوه في الميدان ننتمي لطبقة لم تتعب في شيء.. أعتقد أننا إن قُمنا بإحصاء تاريخ كل من في الميدان، سنجد غالبيتنا سافر أهله إلى الخليج في السبعينيات، في زمن الانفتاح القبيح، من أجل العودة بسيارة صغيرة وشقة بمدينة نصر وضواحيها وبعض المستلزمات والأدوات الكهرُبائية.. لم نتعب في شيء.. حياتنا حل وسط.. متطلباتنا حل وسط.. أداؤنا في عملنا وَسَط.. نحن لسنا في أعلى السُلَّم الاجتماعي مثل الهلابين الكِبار أو كما يسميهُم أبي ويضُمهُم إلى خانة "ولاد الوسخة"، ولسنا لا نمتلك أقواتنا مثل الآخرين الذين يعيشون في كوكب موازٍ ونكاد لا نعلم عنهم شيئًا ونتكلم عنهم بشفقة وتعاطف ثم ننساهم تمامًا ونحن نُدخن سجائرنا الأجنبية.. لا نعمل شيئًا بأيدينا، لا نُنتج أي شيء تقريبًا.. إنجازاتُنا محدودة وطموحاتنا لا تتعدى حدود المعقول، لن نجوع يومًا من الحاجة، ويوم تنتهي رواتبنا قُرب نهاية الشهر سنشتري سجائر محلية وسنأكل سندويتشات رخيصة من محال على الطريق.. حياتنا بأكملها حل وسط.. لذا لم أفهم سر هذه الانتفاضة، أو فلأقل هذه الثورة حتى لا ينهرني جلال.. ولكن هذا ليس مفهومي عن الثورة.. اعتقدت وأنا أصغر وأكثر حماسًا أن الثورة لا يقوم بها أصحاب الحياة الوسط، يقوم بها الذين لا يمتلكون الحياة أصلاً.. رُبما تكون هذه الثورة هي الاستثناء الأول.. لم أكُن مُتشائمة لهذه الدرجة.. فلنقل إنني كنت مُتفاجئة.. هذا التحضر المُبالغ فيه الذي يتصف به الميدان.. الأخلاق المُفاجئة التي نزلت في لحظة غامضة على

Twitter: @ketab_n

الطبقة الوسطى.. لماذا لا يتحرش بنا - أنا وريما وليلى وغيرنا من النساء - الرجال بعد أن أصبح تحرشهم بنا في الشارع عادة وكاد أن يصبح حقًا مُكتسبًا.. فجأة انهمرت الأخلاق الحميدة على من يدخل الميدان.. وكأن هناك من يرُش الميدان بمساحيق الأخلاق الحميدة واحترام النساء من طائرة خفية.. كُنت أقابل هذا الأداء الغريب بريبة وتوجُس.. وكانت الفتيات يقلن في تأثُر: "يا ســـــلام، الثورة بتغير من أخلاق الناس والله"

وأرُد أنا: "الكلام ده ما ياكُلش معايا، إيه؟ خلاص؟ بعد عشر سنين أو أكتر من البحك في الأوتوبيسات والمرمطة من الرجالة في الشارع ما ياكُلش معايا جو الأخلاق الحميدة ده" ينظرون إليَ في اشمئزاز ويقولون إنني كئيبة ولا أنظُر سوى للجانب المُظلِم فقط من الحياة، لا أستطيع أن أُنكر أن الميدان قد دافع عن نفسه طوال فترة الاعتصام بشكل مُبالغ فيه، الرجال والنساء يُنظفون في حرص طوال الوقت أماكنهم، هناك درجة عالية من النظام تسود المكان، فهُناك رُكن لكُل شيء.. رُكن قراءة الجرائد، رُكن المدونين، رُكن لبيع الطعام والمياه المُثلجة والعصائر، رُكن لأصحاب التظلُمات والشعارات واليفط ذات الجُمل الساخرة التي تهاجم النظام في شراسة.. هناك مكان للجميع.. وأنا وليلى وريما وجلال لا نفترق تقريبًا.. يترُكنا جلال لفترات، يحضر اجتماعات وجلسات ومشاورات، ويعود إلينا مرات واجمًا وعابسًا ومرات أكثر مُتفائلاً ومُشرقًا.. ونحن نجلس على رصيفنا.. ننتظر.. أنا أنتظر في يأس اللحظة التي سيقتحم الجيش الميدان ويقصِفُنا جميعًا فيساوي الميدان بالأرض، وريما وليلى تنتظران سقوط النظام، وجلال يفعل كل ما يفعل حتى نظل صامدين.

Twitter: @ketab_n

كان هناك الكثير من الشائعات، الشائعات التي لم نتأكد منها حتى الآن وبعد أن انتهى الاعتصام.. كانت أكثر الشائعات تتناول فكرة القبض على كل من يحاول مُغادرة الميدان، هناك سيارات أمن وشرطة عسكرية تتلقف المُغادرين وتأخذهم إلى مُعسكرات الجيش للتحقيق معهم.. كانت الشائعات مُبالغًا فيها، ناهيك عن شائعات سيارات النقل التي تحمل البلطجية الذين يؤجرهم رجال النظام حتى يقوموا بإخلاء الميدان.. نرى الناس تجري فجأة في اتجاه أحد مداخل الميدان: "الحقوا الحقوا البلطجية جايين من بعيد" وبعد الجري والتوتر والفزع، يتضح أنها إشاعة أُخرى. ما حدث هو أنه بالفعل تم إلقاء القبض على الكثير من المُغادرين - ليس كُل من غادروا بالتأكيد - وأنا في هذه الأيام قررت أن أكون نعامة.. لا شيء يحدُث سوى ما أراه، ما لا أراه عندما أكون نائمة أو خارج الميدان أو دافسة لوجهي في الرمال لم يحدث.. كانت هذه أكثر طريقة مُريحة لمواجهة هذا التوتر.

عندما قرر أبي أنه سيبيت بالميدان، في يومنا الثالث بالاعتصام، شعرت ببعض التوتر.. صحته وسِنه لا يسمحان بهذا.. وهو أيضا شخص عنيد وستتوتر أعصابي وتختل ضربات قلبه إن ناقشته في قراره هذا.. قررت أننا سوف نبيت سويًا، درست كل بقاع الميدان حددت المكان الآمن نسبيًا حتى نجلس فيه.. أخبرت الرفاق أن هناك حالة طوارئ الليلة فالأب قادم للميدان ومن الواجب الاستعداد للقائه.. جلال يربّت على كتفي مطمئنًا وليلى وريما يبتسمان في سيطرة وثقة.. ربنا يستُر.

Twitter: @ketab_n

طوال الطريق وهو مبتسم ابتسامة مُنتصرة، لم ينطق بكلمة معي، فقط ينظُر من شباك سيارة الأُجرة والابتسامة تتسع على وجهه.. وأنا أتحرك كثيرًا في مكاني.. أُخرج أغراضًا من حقيبتي وأُعيدها إلى مكانها مرة أخرى.. أحضرت معي بطانية صغيرة ومخدة الطائرة المُريحة.. لم أستطع أن أحمل معي بطانية إضافية، معي عُلبة الأدوية الخاصة به وزجاجة مياه ومعي عُلبة صغيرة بها ساندوتش جبن قليل الدسم والملح حتى لا يصيبه ارتفاع الضغط من الأطعمة التي تُباع في الميدان.. دخلنا إلى الميدان وبدأنا الرحلة المُعتادة.. نجوب الأطراف ونقف عند الأصدقاء الذين نُقابلهُم صدفة.. وجد هو الكثير من أصدقائه، أسمع نفس التعليق كل خمس دقائق: "ايه اللي جابك بس، صحتك يا راجل" فيرد هو في ثبات: "كان لازم أبقى موجود، بعد العُمر ده كُلُه ما كنش ينفع أفوّت الثورة من غير ما أحضرها" أجتذبه من ذراعه وأمشي به حول الصينية الكبيرة.. يقف هو ليتأمل من خلف زجاج نظارته الشباب الواقف في ثبات واليُفط في أيديهم.. هناك الكثير من الشعارات المُضحكة.. هناك الكثير من الأطفال من أعمار صغيرة للغاية يهتفون بأصواتهم الرفيعة ويحملهم آباؤهم على الأكتاف.. لا أحب مشاركة الأطفال في السياسة عامة، ولكن أطفال الميدان أعطوه شكلًا جديدًا.. كُلنا كُنا نتساءل، كيف سيكبر هؤلاء الصغار بعد ما تعرضوا له من خبرات وبعد ما رأوه من ثورة؟ نتجول وترتسم على وجهه ابتسامة كبيرة.. هناك إحدى الفرق الموسيقية تُغني أغاني الشيخ إمام على مسرح بدائي داخل الميدان.. أشير له أن نجلس قليلاً.. نجلس سويًا على الأرض.. أنظر إليه بطرف عيني.. ينظُر

Twitter: @ketab_n

في ثبات إلى المسرح.. لا تختلج عيناه - مصر الشموس الهلّه مالزنازين، هلّه وطارحة في دمنا بساتين - أرى عينيه تدمعان فأُدرك أنه يسترجع ذكريات قديمة.. غالبًا ما يحدُث بالنسبة له هو دوامة زمنية.. يتذكر أيام السجن الستينيَّة، رُبما قد غنَّى مع رِفاقِه ذات الغنوة بمُعتقل الواحات.. رُبما دخل السجَّان ليأمُرهم بالصمت ورُبما نال ضربة أو اثنتين بالكُرباج إن عصى الأمر.. تغيَّر المكان والزمَّان.. هو ليس حاقدًا وناقمًا على الظُلم الذي لاقاه.. ولا هو حاقد أو ناقم على السنوات التي ابتعد فيها عن البلد وبالتأكيد ليس حاقدًا أو ناقمًا أن الصِغار يثورون الآن.. رُبما يكون الأمر غريبًا، ولكنه لا يثير حقده مثل الكثيرين من جيله الذين سمعت منهُم تعليقات تشِي بالمرارة.. كان أبي سعيدًا، مُترقِبًا مثلي ومثل الآلاف أو الملايين ... وعندما رقدنا في هذه الليلة على الأرض وافترش هو البطانية الصغيرة التي أحضرتها معي وافترشت أنا معطفي الثقيل رأيته يغلق عينيه وعلى وجهه ابتسامة كبيرة.. وجهه مُتجه للسماء، ولأول مرّة منذ سنوات طويلة لم أسمع صوت التزييق القادم من صدره ولم أشعر بعضلة قلبه تختلج في ارتباك مثل العادة.

Twitter: @ketab_n

26

أصحو مُبكرًا لأحضِّر الإفطار لعلي.. أتذكر عندما كُنت صغيرة وكان أبي يضع الفول في "القدرة" بعد أن ينقعه في الماء من الصباح وحتى المغرب.. عندما تغرب الشمس يدخل إلى المطبخ ليقطع بصلة وفصين من الثوم وثمرة طماطم واحدة ويضع كل شيء مع الفول في "القدرة" ويغطيها بالمياه ويتركها على النار الهادئة.. أظل جالسة بجانبه إلى أن أبدأ في استنشاق رائحة الفول وهي تنتشر في المنزل كُلّه.. وبعد ساعات، رُبما يكون الليل قد انتصف يطفئ عين البوتاجاز ويُفرغ "القدرة" في إناء عميق.. لا بُد أن نتذوق طبقًا من الفول بعد انتهاء عملية التدميس المُعقدة والتي في الواقع كُنت أظُنها بسيطة، ولكن تعامل أبي مع المقادير بنفس دقة عالم الذرّة - يقيس كل شيء ويقول لي إن المقادير إن اختلت سنتيمترًا واحدًا سيفسد الفول - جعلني أحترم عملية تدميس الفول وأجِلّها.. بعد أن تنتهي العملية الدقيقة نجلس لنتقاسم طبقًا من الفول بالخبز البلدي.. فول بزيت الذرة والليمون والكمون والفلفل الأسود ولا مانع من فص ثوم مفروم

Twitter: @ketab_n

وثمرة طماطم مُقطعة قطعًا صغيرة.. كان أبي هو الذي علّمني أن أُضيف الجُبن الأبيض إلى الفول وأهرسه بداخله بالشوكة، كُنت أظُن أن جميع من يأكل الفول يضيف إليه الجُبن الأبيض، وعرفت بعد سنوات أنها عادة مقتصرة على أبي الذي نقلها إليّ.. المُهم أنني لم أجرؤ أبدًا على تدميس الفول في المنزل.. لا أستطيع مُنافسة أبي في مجالات تفوقه.. يوجد لديّ كيس من الفول.. دومًا مكانه على الرف بجانب باقي الأكياس.. ولكنني لا أستطيع أن أفتح هذا الكيس وأستخدمه.. أُفكر في إفطار لعلي ولا أعرف ماذا سأفعل.

نحن نقوم معًا في الصباح.. قبلة سريعة، ربما البعض من الأحضان الصباحية، عندما أسمع صوت المياه المتدفقة، أعرف أن لديّ 25 دقيقة بالتمام والكمال.. لا وقت للتفكير في الإفطار.. أعصُر البرتقال، وأضع الخبز على عين البوتاجاز.. أشغِّل أغنية واحدة وأسمعها خمس مرات حتى ينتهي علي من حمامه الصباحي، أكون قد وضعت الجُبن على الطاولة، أقلي البيض سريعًا وأُقطع عليه الطماطم والفلفل الأخضر والبصل الذي يحبه كثيرًا.. يخرج علي مرتديا ملابسه.. أحضِر الفرشاة لأمشط شعره الطويل، أصبح شعره أطول من شعري الذي قصصته في طلب متهور منه.. يشرب العصير، يتناول إفطاره سريعًا، يرتدي حذاءه ويقف على عتبة الباب.. أقترب منه وأنظر إليه مرة.. اثنتين.. ثلاثا.. أُدخِل يدي داخل أكمام السترة الخارجية لألتقط بأصابعي أطراف أكمام القميص المتكوم بالداخل، أضبط الأكمام وأشِد أطراف سترته الخارجية.. أنظُر إليه مرة أخرى، مرتين،

Twitter: @ketab_n

ثلاث مرات.. وأعطيه قُبلة أخيرة، يحتضنني في عجالة ويذهب.. يغلق باب المصعد وأُغلق أنا الباب، الغنوة في مرتها الثامنة والأخيرة.. درب تبعدني عن دربك.. واندهلك يا حبيبي بحبك.. أطفئ الغنوة وأُدخن سيجارة سابعة لأبدأ يومي بدونه.

الكروان يقف على الشجرة أمام منزلي.. أسمعه كل يوم في الصباح.. أحيانًا يقرر الغناء في المغرب.. أسمعه بوضوح شديد، أكاد أفسِّر الأغنية وأضع عليها كلمات من تأليفي.. وأنا أُحب الكروان، هو يذكِّرُني بعلي بعد أن يرحل.. الكروان حزين مثل علي، رُبما يحكي حكايتُه.. صوت علي رفيع وجميل أيضًا مثل الكروان على الشجرة أمام بيتي.. لا أرى الكروان أبدًا، أُحاول أن أجده على الشجرة وأُخرِج نصفي الفوقي بالكامل من الشباك بحثًا عنهُ ولكني لا أجده.. وعندما أبحث عن علي لا أجِده، أعرف أنه موجود ولكنني لا أراه ولا أستطيع أن أتلمسه وأحيانًا أعترف لنفسي أنني لا أُريد أن أُمسك بالكروان ولا أن أُمسك بعلي نفسُه.. يكفيني أن أسمع صوتهما الحزين من فوق شجرة بعيدة.. يكفيني أن أستمتع بوجودهما ولو من على مسافة بعيدة وقريبة في ذات الوقت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

27

وضع زين مقاييس عالية لتعريف الحُب.. كان وجوده الهادئ الصاخب في حياتي كاسِحًا، لم أكُن أُفكر في البدايات والنهايات والتعقيدات العادية للعلاقات.. لم أكُن أُفكر في المُستقبل، كان وجود زين يكفيني سلامًا وجنونًا.. كُنت أذهب إليه أحيانًا لنجلس في مقهى بوسط المدينة.. أحمل حقيبتي الصغيرة، بها كُتُبي وأوراقي ولوازم الجامعة.. يطلُب مِني أن أقرئه قصيدة: "اقريلي قصيدة تكوني بتحبيها يا نادية.. حاجة قُريبة من قلبك" أرتبك، مُعظم القصائد التي كُنت أُحبها في هذا الوقت باللغة الإنجليزية، أخاف أن تكون ترجمتي ضعيفة فينزعج زين.. أُقرر أن أقرئه كوليريدج، هي قصيدة قريبة من قلبي، "أنشودة الملاح العجوز" قصيدة قديمة تحكي عن بحار عجوز قتل طائرًا بحريًا كان يطير في حُرية حول سفينة الملاح وأدى هذا إلى تكالب قوى الطبيعة ضد البحار ومُعاقبته على جريمته.

في أحلامنا تأكدنا

Twitter: @ketab_n

أننا قد ابتلينا بروحه
وتتبعنا هو تسعة أيام
من أرض الضباب والثلج
جفت ألسنتنا من العطش
ذبلت كجذور الأشجار
لم نستطع أن ننطق
فقد اختنقنا بالمازوت
اليوم يمضي والشرور تحيط بي
من الكبار والصغار
وبدلاً من الصليب
كان الطائر مُعلقًا حول عُنُقي

يسمعني في رفق، وهو يحتضن كفيّ، كان الحُزن في أعيُن زِين غير مُفتعل، هو حزين منذ ماتت زوجته.. لم يُنجِب منها أطفالاً ولم يتزوج، وظل سنوات ينتظر حتى تلاقينا، هو يقول هذا، يقول إن حياته قد مضت وهو ينتظرني.. يقول إنه كان يعرف أن شيئًا ما سيحدث له، أنه سيقابل هذه الفتاة الصغيرة وأنها ستكون القصة التي ستعوضه بها الحياة.. يختلج قلبي في شدّة وهو يضم كفيّ ويُخبرني في حنان أنني فتاته اللامعة، أنني مُلهمته وأنني أغزل أحلامه دون أن أدري.. لم يكُن زِين يريد مني شيئًا، كان فقط يُحبني وكان هذا كافيًا.. لم يكُن كافيًا في هذه اللحظة فحسب، بل أدركت لاحقًا أن حُب زِين كان كافيًا لي ما تبقى من حياة.. فبعد سنوات، قابلت "علي"، وأحببته، قابلت رجالا كُثر، انكسر قلبي أكثر من مرّة، وظل حُب زِين يعينني على كُل ما يحدث.

Twitter: @ketab_n

لم يُحبني جلال مثل ما أحبني زِين، ولكنني في لحظة ما صدَّقت ما كان جلال يقوله لي.. لم أعُد أنبهر، فقد استنفد زِين طاقة الانبهار لديّ.. أصبحت أستمع إلى كلمات جلال الهادئة في سكون أقرب إلى الاعتياد.. أُصدقه تمامًا، جلال شخص ثائر وصادق، هو ليس كالآخرين، ليس كذابًا أو أفاقًا أو نصابًا.. هو ساحر، جميعُنا نُحب جلال ولا نستطيع الاستغناء عنه، ربما هو أكبرنا ولكنه طفلُنا جميعًا، ربما تُدافع عنه باستماتة عندما أغضب من تصرفاته الطفولية وليلى تقول إنه أرعن وطائش في مشاعره ويجب أن نحتويه، أعرف بداخلي أن ثلاثتنا قد مررنا بقصةٍ ما مع جلال، وأننا قد تجاوزنا قصصنا منذ زمن حتى أصبحنا جميعًا في دائرة واحدة من الود غير المُفتعل.. لا أعرف تفاصيل القصص الأُخرى، ولكنني أعرف تفاصيل قصتي، أعرف أن جلال كان يتفنن في أن يجعلني أشعر أنني الوحيدة من نوعي، لا أحد يشبهني، ولا أحد اقترب من قلبه مثل ما اقتربت.. كنت أشعر بسعادة شديدة - ربما لم تظهر يومًا على وجهي - عندما يقول لي جلال أنه يُحبني.. أستمع له وهو يتحدث عن نضال الكادحين وصدق الفقراء وأُصدقه، كان لديّ خلفية عن هذه المُفردات فأبي يتكلم عنها، ويستخدم ذات الكلمات منذ كُنت طفلة، لذا فقد صدقت كل ما قاله لي جلال عن طبقات الشعب المطحونة.. وعندما كُنت أشعر باليأس في لحظاتٍ ما وأنا راقدة على ظهري في الميدان الواسع، كُنت فقط أختلس النظر إلى أعين جلال، فأرى الأمل يقفز منهما فتعود لي الثقة.. هو يعرف أننا نقف على ذات المُربع، موجاتنا منضبطة على ذات التردد، أستمع إلى صوته وهو يهتف في التظاهُرة الصغيرة التي تلِفُ الميدان فيندفع الدم

Twitter: @ketab_n

إلى رأسي في حماس، يتسلل الإحباط إلى صوتِه، فأعرف أنني على شفا الاكتئاب.. كانت مشاعر جلال تجاهي مُربِكة وغريبة، يقول إنه يُحبني ويقول ذات الكلمات للعشرات غيري، ومع ذلك أُصدقه ولا أتهمه بالخيانة أو الكذب.. لم ندخل يومًا في علاقة تقليدية نتشارك فيها المشاعر والحياة، ولكن كان بيني وبينه الكثير والكثير من العاطفة المُنطلقة بلا قيود.. وحتى بعد مرور سنوات، أعرف أن أقصى آمال جلال تجاهي هي أن يُقبلني، وحتى بعد مرور السنوات، أكتفي دومًا معُه بحُضن دافئ يعوضنا ما لم نستطع تحقيقه.

Twitter: @ketab_n

28

عادت الاتصالات أخيرًا بعد أن انقطعت لمدة خمسة أيام كاملة، عادت الاتصالات بعد بيان رئاسي رخيص استخدمته الدولة في إثارة مشاعر وشجن الجميع، ليس الجميع بالضبط، فبعد هذا البيان كان الميدان يتفجَّر بمشاعر السخط والغضب الممزوجة بالسخرية.. كانت للميدان طاقة من الصدق الفطري، له مقاييسه الخاصة التي تفرز الحقائق وتُقصي الأكاذيب، لذا كان من يخرُج من الميدان تصيبه حالة من الإحباط والوساوس واليأس.. كنت أشعر أحيانًا أن الميدان يقع خارج مقاييس الجُغرافيا والتاريخ على الرغم من التصاقه الوثيق بهُما.. كان بالنسبة لي يُطبق النظرية الروسية "الكرونوتوب" هو مكان يؤثر على الأحداث بشكل مُباشر ويحركها ولكن لديه طاقته الخاصة التي لا تتأثر بالعوامل الخارجية الكُثر والتي تُحاول هدمه بكُل الطُرُق.. لهذا عندما سمعتُ البيان مع ريما وجلال وليلى بالميدان لم نشعُر سوى بالغضب الشديد.. عندما أتذكر ردود أفعالنا الآن أجدني رُبما قد بالغت في الغضب مع ريما، كُنا نصرخ من الانفعال:

Twitter: @ketab_n

"هم حيفضلوا يكدبوا كده، ده ابن ستين كلب، إزاي ممكن حد يصدقهم، عايزين يضحكوا علينا" قررت بعد هذا البيان أن أذهب إلى أبي بالمنزل، أحتاج إلى حمام دافئ، أحتاج إلى بضع ساعات من النوم على أريكتي المُريحة.. أشعر بإرهاق شديد ولا بد من الراحة، وفور طلوع الصباح قبّلت ريما وليلى وجلال وانطلقت إلى البيت.

استقبلني أبي في لهفة مثل العادة: "التليفونات رجعت، تليفونك اشتغل؟" رددت: "آه غالبًا اشتغل بس لسه البطارية قاطعة شحن، حشغله"، قال في ريبة: "إنتي إيه اللي رجّعك؟" قُلت مازحة: "إيه مش عايزني أرجع؟ وحشتني ورجعت أشوفك" قال في لوم: "شكلك زهقتي ومش عايزة تكملي

"يا ساتر عليك، تعبانة يا بابا وعايزة آخُد دش وأرتاح شوية، حاستحمى وأنام ساعتين وحنزل تاني، حتى إبقى تعالى معايا لو عايز، متهيألي الدُنيا أمان"

خلعت كل ملابسي ووضعتها في الغسالة، أقف تحت المياه الدافئة وأرى المياه التي تنساب منّي، لونها أسود داكن، توجد أكوام من التُراب على جسدي، أشُك أيضًا في وجود حشرات صغيرة حيث أجد قرصات في أماكن مُتفرقة، رُبما كانت هذه أطول مرّة وقفت فيها تحت المياه، خرجت من الحمام لأجد أبي جالسًا أمام التلفاز، يبدو مُتوجسًا، قُلت له: "بُص ما تصحينيش خالص قبل 3 ساعات، أنا عايزة أنام، ما تصحينيش غير لو فيه

Twitter: @ketab_n

كارثة، ماشي؟" قال في مزيد من اللوم: "مش عارف حيجيلِك نفس تنامي إزاي؟" قُلت: "حيجيلي يا بابا، أنا ما عنديش دم، ولو ما نمتش كويس ممكن ما أعرفش أنزل تاني قُلت هذا وتقريبًا أُصبت بغيبوبة نوم لم تنعد الساعة أفقت بعدها على أبي وهو يهزني في عُنف: "نادية نادية، قومي، إصحي شوفي إيه اللي بيحصل" قُلت وأنا مازلت في ترانس النوم: "بابا أنا مش قُلتلك ما تصحينيش، حرام عليك"

"قومي يا بنتي بقولك، فيه مُصيبة بتحصل، قومي شوفي التليفزيون بسُرعة" فتحت عيني لأرى مشهدًا عبثيًا غريبًا في التلفاز، ظننت لثوان أنه جزء من حُلم - أو بالأصح كابوس - يأتيني في نومي، أفقت لأرى حيوانات، جَملين كانوا أو ثلاثة، وحصانين أو ثلاثة، ربما أربعة ينطلقون في الجريّ في الميدان، هُناك مُتظاهرون يحاولون منعهُم من التقدُم، ولكن من يمتطونهم يدوسون فعليًا على المُتظاهرين، يوجد الكثير من الصراخ، ويبدو أن هُناك الكثير من الدماء أيضًا، صرخت: "مين دول ودخلوا الميدان إزاي؟ هو الجيش مشي ولا لسّة واقف" رد أبي في مرارة: "جيش إيه بس؟ الجيش واقف زي ما هو، دي مؤامرة، الدبابات عديتهم وواضح إنها حتبقى مجزرة" بدأت أكلم نفسي وأنا أتحرك بحثًا عن هاتفي المحمول: "يا نهار اسود، يا نهار اسود، جِمال وحصنة؟ هي بقت كده؟ إحنا إيه؟ في العصور الوسطى؟ بيدَخلوا علينا جمال وحصنة؟ ايه الفضيحة دي؟ يا ولاد الكلب، يا ولاد الكلب" وجدت هاتفي أخيرًا، أطلُب رقم جلال في توتر شديد، يرُد بعد المرة الرابعة، صوته هادئ ولكن في الخلفية

Twitter: @ketab_n

صوت طبول أو دق على حديد، لا أعرف بالضبط ما هذا الصوت ولكنه مُرعب: "أيوه يا نادية أنا كويس ما نخافيش"

"كويس إيه يا جلال، بقولك إيه ما تضحكش عليا، إيه اللي بيحصل؟ في حد جراله حاجة؟"

"يا حبيبتي بقولك أنا كويس، ريما وليلى كويسين"

"طب أنا حلبس وجاية" يقول في سُرعة: "لأ إوعي تيجي دلوقت، استني لمّا الدُنيا تهدى، الوضع مش أمان" أقول في حدة: "لأ أنا جاية، حكلمك وأنا في الطريق، إوعى تليفونك يقطع، هو إيه الصوت اللي حواليك ده؟" يقول: "داحنا بِندُق على الحديد عشان نخوفهم، يعني يمكن لمّا يحسوا إننا كتير يمشوا" أُنهي المكالمة وأنا أوصيه بنفسه، أوشوش نفسي وأنا مازلت أمسك بالهاتف: "ما تمُتش يا جلال، والنبي ما تمُتش أنا مش ناقصة" أرتدي ملابسي في عُجالة، يقول لي أبي: "استني ساعة تكون الدُنيا هِديِّت، مش حتعرفي تدخلي الميدان دلوقت خالص" أجلس بجانبه أمام التلفاز، هناك العشرات، المئات من أشخاص لا أعرف انتماءهم يقفون على مداخل الميدان، يُمطِرون المُتظاهرين على الطرف الآخر بالحجارة، الدبابات في المنتصف بين الطرفين، الضباط والعساكر تقريبًا لا وجود لهم، جالسين داخل مُدرعاتهم يحتمون بها، لا يحاولون التدخل إطلاقًا، يتركون المذبحة تحدث أمام أعينهم في برود مُذهل.. كانت المعركة بدأت تحتدم، استطاع المُتظاهرون السيطرة على الحيوانات وأسر أحد

Twitter: @ketab_n

الجِمال، في نفس الوقت صعد عدد من البلطجية إلى البنايات العالية بالميدان وبدأوا في قذف المُتظاهرين بزجاجات المولوتوف وكور النار المُشتعلة، كان هذا يحدُث ومعركة الطوب مشتعلة على الأطراف، الجرحى يسقطون بالعشرات، القنوات تنقل على الهواء.. أسمع دقات قلب أبي المُعتل من مكاني، أحاول أن أُهدئه: "ما تقلقش الدُنيا حتهدى دلوقت، والنبي بلاش ضغطك يعلى أنا مش ناقصة" ينظُر لي في صمت ويُتابع معي الصور المُخيفة، أتصل بجلال مجددًا، لا يرُد، ينقبض قلبي، أتصل بريما، بليلى، لا أحد يرُد.. ما زلت مُرتدية لملابسي وجاهزة للنزول في أي لحظة.. أشعُر بالعجز، من المُستحيل دخول الميدان الآن، هو مُحاط بالبلطجية من جميع الاتجاهات، لا بُد أن أذهب، لا يوجد حل آخر، لن أجلس عاجزة في مكاني.. يصفرّ وجه أبي عندما أُعلن أنني ذاهبة، الساعة السابعة، لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا ، لا يُحاول أن يمنعني من النزول.

"خُدي بالك من نفسك، لو لقيتي إن الوضع خطر أوي، ارجعي، أو روحي عند حد من صُحابك قُريِّب من الميدان، خلي تليفونك مفتوح، حكلمك كل شوية، اوعي ما ترُديش، لو ما ردتيش حعرف إن جرالك حاجة وحتبقى وقعتك سودا"

"حاضر، متخفش" أنطلق إلى الميدان، لا توجد سيارات أُجرة توافق على الذهاب إلى الميدان.. أُقرر أن أمشي من اتجاه قصر النيل، ناس لا أعرفهم بالشارع يُشيرون لي بالتراجع، أرى البلطجية من على بعُد يحتلون كوبري قصر النيل، أتراجع وأتَّخذ

Twitter: @ketab_n

طريق عبد المنعم رياض، أمشي بمُنتهى الثقة بين البلطجية، أطلُب رقم جلال وأنا في الطريق، يرُد أخيرًا، أقول له أنني على مشارف الميدان من مدخل عبد المنعم رياض، يصرخ في الهاتف: "إنتي عبيطة، جايَّة من أوسخ جبهة، ارجعي لو ينفع، تعالي من القصر العيني قبل أن ينتهي من الكلام كُنت قد وصلت إلى المُدرعة التي تسِد مدخل الميدان، أرى أشياءً غريبة لم تكُن موجودة عندما غادرت المكان، هُناك سواتر حديدية يقف من ورائها مُتظاهرون، هُناك وجوه ليست صديقة خلفي، أُعطيها ظهري وأتجه إلى السواتر، أجد ضابطًا صغير السن، مغبّرًا ويبدو عليه الإرهاق، قميصه عليه الكثير من التُراب، وتقريبًا أُميِّز أثَر حذاء على وجهه، الهيستيريا تملأ وجهه، ينظُر لي في فزع ويقول: "إنتي إيه اللي جايبك هنا؟ رايحة فين؟" أقول في إباء: "داخلة الميدان"

"نعم ياختي؟ داخلة الميدان؟ إنتي مش عايشة في الدنيا؟ فيه حرب يا ماما، حرب، لو حاولتي تدخلي حتاخدي طوبة تدغدغ دماغك، ولو فاكرة إني هحميكي فأحب أقولك إني ما ليش فيه، ما حدش حيعرف يحميكي هنا"

"يعني عايزني أعمل إيه؟ مانا لازم أدخُل"

"أقولك عالحل، إنتي تُقفي مع الناس اللي ورا دول" يقول هذا وهو يُشير إلى البلطجية الذين يهتفون بحياة النظام "وتهتفي معاهم، عشان لو عرفوا إنك من جوه الميدان حياكلوكي، ده الحل

Twitter: @ketab_n

الوحيد" أقول بتصميم: "لأ.. على جثتي، خلاص حدخل من شامبليون" يقول في يأس: "خلاص إعملي اللي إنتي عايزاه المُهم امشي من هنا"

أستدير وأبدأ في المشي إلى مدخل شامبليون، أحاول الاتصال بجلال مرّة أخرى، أحاول أن أمشي بخطوة سريعة، أسمع فجأة هتاف أحدهم "عراقيين، عراقيين أهُم، تعالوا يا جدعان" أنظر حولي لأجد مجموعة من الرجال تتجه إلي، لا أفهم، لماذا يوجد عراقيون هُنا؟ وأين هُم؟ أكتشف أن هذه المجموعة قادمة من أجلي، وأنني "العراقيين" الذين أشار الرجل السابق ذكره إليهم، أجد ياقة قميصي فجأة في يد أحدهُم، يُمسك بي من قفاي، أشعُر بإهانة شديدة من طريقة إمساكه للقميص، يبدأون جميعًا في النقاش بصوت عال: "أنا شُفتها وهي بتتكلم في التليفون، لهجتها عراقية، تلاقيها بتبلغ الناس اللي باعتينها عن كُل اللي بيحصل هنا، أنا سامعها بودني، أنا ماسك بيجي أربعة إيرانيين النهارده، دي الجواسيس مالية البلد، كُله من الخونة اللي في الميدان" أحاول أن أشرح أنني لست عراقية، أتكلم بصوت عال حتى يعرفوا من لهجتي أنني مصرية، لم تفلح محاولاتي الساذجة، كانوا يصرُّون على الشر، أنقذني سائق سيارة أُجرة ظَهَر كالملاك الحارس، أخرج وجهه من الشباك وهو يقول: "عملت إيه البت دي يا رجالة؟" ردّوا عليه: "دي من الخونة اللي جوّه، جاسوسة يا اسطى قال بصوت عال: "لأ يبقى لازم نسلِمها، بلاش ضرب وبهدلة، إحنا نوديها للجيش" قال هذا وهو يُشير لي إشارة خفية بيده أن أركب السيارة، كان الرجل

Twitter: @ketab_n

الذي يمسك بقفاي قد خفف من قبضته وهو يتكلم مع السائق، فلفصت من يده في سرعة وقفزت داخل السيارة التي انطلقت بسرعة شديدة قبل أن يُدركوا أن السائق يقوم بتهريبي.

انفجرت في البُكاء بمجرد ركوبي السيارة، نظر لي السائق في المرآة، كان عُمرُه لا يتجاوز الخمسة والعشرين عامًا على الأكثر، قال في شفقة: "بس يا آنسة ما تعيطيش، ما فيش حاجة تستاهل، يعني لو جالك الضغط ولا جاتلك جلطة البلد دي حتنفعك؟ مش حتنفعك، صحتك أهم، إهدي والنبي كان ينطلق بسيارته بعيدًا عن الميدان وأنا منهمرة في البُكاء، أنهنه في شدة وأقول من بين الشحتفات: "مفيش فايدة مفيش فايدة" قال لي وهو ما زال يتفحصني في المرآة: "لأ يا آنسة فيه فايدة، إنتي بس اللي وقفتي في المكان الغلط، طب إنتي عارفة أنا بنزل كل يوم، مش بقعد طول اليوم، بس بنزل، أشوف حد عايز مُساعدة، دوا، سجاير، أهه ندرت تلاتين جنيه كل يوم أجيب بيهم حاجات للعيال اللي بيباتوا في الميدان، مش كتير، بس أهي نواية تسند الزير، فيه فايدة يا آنسة، اللي كانوا عايزين يضربوكي دول عبيد، ولاد وسخة دماغهم ممسوحة" رددت وأنا مازلت أبكي: "ما تقولش كده، مش عبيد، هُم غالبًا قابضين عشان يفضّوا الميدان" قال بلهجة الفاهم كُل شيء: "لأ إنتي مش فاهمة حاجة، دي عالم الفلوس مش فارقة معاها، دول لا مؤاخذة بيعملوا كده مزاج، مصدقين وعايزين اللي بديهم بالكرباج، ما يعرفوش يعيشوا غير بالكُرباج" انزعجت قليلاً من نظرية السائق، وتذكرت كلمات جلال: "ما فيش حاجة اسمها شعب من العبيد،

Twitter: @ketab_n

واللي يقول كده يبقى ابن وسخة، الناس ممكن يبقوا غلابة بس مش عبيد" سألت السائق: "إنت رايح فين؟" قال: "هروحِك، إنتي ساكنة فين؟" قُلت: "أنا مش عايزة أروَّح، رجعني الميدان لو سمحت". زفر في فراغ صبر: "وبعدين؟ لمّا يمسكوكي تاني؟ بلاش يا آنسة وروحي لغاية ما الدنيا تهدى، الميدان مولّع ولسه المعركة شغالة نار قُلت في عناد: "معلش، لو سمحت رجعني الميدان، بس بلاش من عبد المنعم رياض، وديني من القصر العيني قال في يأس: "خلاص حوديكي، بس لمّا نشوف أنهي مدخل أمان"

اتصلت بجلال وما زال أثر البكاء في صوتي، أدرك أنني كُنت أبكي، سألني في توتر: "إنتي تمام ولا حد عملّك حاجة؟". قُلت: "أنا كويسة، إنت فين؟" قال: "تعالي على القصر العيني، أنا وليلي وريما هناك" كان الشارع هادئًا وإن كان الرصيفان في حالة مزرية من التكسير، توجد وشوش غريبة في ميدان طلعت حرب، وقف السائق على جانب الطريق قبل أن يصل لأول لجنة شعبية، وقال لي: "هنا أمان، خُدي رقمي، كلميني لو احتاجتي إنتي أو زمايلك حاجة، أنا بعرف أسلّك في الحديد، كلميني بس، اسمي منصور، أي وقت تلاقي نفسك محتاجة حاجة كلميني وأنا تحت أمرك" ابتسمت وقُلت له: "أنا نادية يا منصور، مش عارفة أشكرك إزاي، ربنا يخليك" قال بابتسامة مشجِّعة: "ربنا يُنصرنا يا آنسة نادية"

انطلق منصور في طريقه، وجدت جلال ينتظرني على مدخل

Twitter: @ketab_n

الميدان، قميصه مقطّع، ريما تبدو مُكفهرة وليلي في حالة شديدة من التوتر، انفجرت في البكاء ثانية في حُضن جلال، أحكي له ما حدث لي في كلمات مُتقطعة ورأسي لا تزال على كتفيه، انتهيت من الحكي، أزاحني جلال من على كتفه: "نادية، مش إنتي كويسة وزي القردة اهو؟ ايه الدراما دي؟ إنتي مش دريانة باللي بيحصل؟" قطبت وجهي: "إنت مستقل إني أتمسِك ويتقال عليّا عراقيين؟ دول كان قصدهم إني جاسوسة" قال: "لا يا حبيبتي بس إحنا من كام ساعة كان بيجري ورانا جمال وحصنة، وبيترمي علينا مولوتوف من الصبح، ريما اتبهدلت والبلطجية جريوا وراها وزنقوها في محل صغيّر ولولا إن صاحب المحل حماها كان زمانهُم كلوها، وليلي بتحلّق علينا من الصُبح، يعني حالتنا كرب، إهدي كده وامسكي نفسك شوية" وجمت للحظات، شعرت فجأة بالدراما التي أمارسها من الصباح، فسكت، قال جلال مازحًا: "وبعدين عراقيين إيه العُمي، دانتي مكتوب على وشك مصرية" قُلت في خفوت: "ما هُم العراقيين شبهنا برضه" نظرت إلى ريما: "إيه اللي جرالك؟" قالت في غضب: "إتمرمطت، جريّ وبهدلة وعِشت فيلم رُعب ابن وسخة" قلت لها في استخفاف مُفتعل وأنا أُقلد جلال: "إنتي مش كويسة؟ بلاش دراما" ضحكنا جميعًا وبدأ التوتر يهدأ قليلاً.. قالت ليلى: "أنا بقول نقعد على جنب نرتاح شوية من كُل الهم ده" قال جلال في عجالة: "ريحوا إنتو شوية، أنا لازم أطلع عالجبهة تاني قال هذا وانطلق يجري فجأة في اتجاه الميدان. تساءلت: "هو جلال رايح يحارب؟ جبهة إيه؟" قالت ليلى: "مانتي مش هنا أصلك، الميدان بقى ساحة معركة في كام ساعة، بقى عندنا عُقبال

Twitter: @ketab_n

أملتِك جبهة شامبليون وجبهة محمد محمود وجبهة عبد المنعم رياض وجبهة قصر النيل اللي احنا واقفين فيها دي وجبهة القصر العيني، كل جبهة فيها سواتر وفيها ضرب، البلطجية بيضربوا واحنا بنرُد عليهم من الناحية التانية، يعني الميدان من جوه كمان مش أمان، فيه ناس بتحدف مولوتوف من فوق العمارات، بصي إحنا اتبهدلنا، ربنا يعدي اليوم الإسود ده على خير سألتهم: "ومين اللي قال إن دول بلطجية؟ مش يمكن ناس مصدقة البيان القذر بتاع إمبارح؟ يا جدعان الناس برّه الميدان مُقتنعة إننا جواسيس وخونة" قالت ريما وهي ترمقني بنظرة نارية: "مالِك يا نادية؟ ما الناس جوه الميدان قدامك أهو، لا حد معاه سلاح ولا زفت، دول داخلين علينا بجمال وحصنة، ده غير إن الفرقة اللي بتحدف علينا بلاوي من فوق العمارات دول مسلحين، معاهم كور مولعة بتنزل من فوق العمارات على دماغ ناس عُزّل، أنا ما عرفش فيه إيه بيحصل برّه، بس فيه مدبحة مُنظمة بتحصل هنا من الصبح" قلت في تعب: "طب إحنا المفروض نعمل إيه دلوقت؟" قالت ليلى: "ولا حاجة، حنستنى جلال لما يرجع، دخول الميدان صعب دلوقت، لما الضرب يبدأ من طلعت حرب، حندخل نشوف حتة أمان نُقف فيها"

كُنت قد نسيت الاتصال بأبي تمامًا، طلبت الرقم، رد فورًا بالطبع، أقول في ثبات إنني بخير، ولا يوجد خطر حيث أقف، أقول إن الوضع جيد وإن المتظاهرين يسيطرون على الموقف. أمشي قليلاً بداخل الميدان، رائحة الدماء على الأرض، عشرات الرجال والشباب يربطون رؤوسهم والدماء تطفح من الشاش

Twitter: @ketab_n

والقطن البدائي الذي يستخدمونه، الدماء في كل مكان، أصابتني حالة من الهلع، لم أكُن أتصور أن الوضع بهذا السوء، ما كل هذه الدماء؟ النظام يحاول الدفاع عن نفسه بكُل ما أوتي له من قوى، يأخذ في طريقه الحالمين، كان كُل من في الميدان بالنسبة لي مجموعة من الحالمين، ناس يحلمون أنهم يستطيعون أن يغيروا شيئا قويًا وصلبًا وغارسًا بإرادتهم، وبالنسبة للأوضاع في بلادنا، هذا حُلم، خاصةً عندما يقوم بتفعيله من ينتمون إلى طبقتنا المتوسطة.. نحنُ جميعًا تروس في ماكينة صناعة الكابوس الكبيرة، نحن لا نُنتج أي شيء، فقط نستهلك ونلِف في الساقية، لم نُجرِّب فكرة الجوع، ولا أعتقد أن أحدًا من هؤلاء الذين كانوا بالميدان قد فكَّر يوما أن يقتُل من أجل أن يأكُل أو من أجل أن يُعالج طفله أو طفلته مثلاً.. هؤلاء هم الثائرون، أمَّا نحن فحالمون فقط، يتخللنا الإصرار.

قضينا ليلة سوداء، أقل ما توصف به أنها سوداء، لم يتوقف الضرب على جبهة عبد المنعم رياض وجبهة شامبليون وقصر النيل، كان الضرب يبدأ أحيانًا في القصر العيني ويتوقف، فقد كانت المجموعات التي تحمي المدخل تقاوم الضرب في شراسة، كان جلال يذهب كثيرًا ثم يرجع ليجلس معنا دقائق يذهب بعدها من جديد، جاءنا في إحدى المرّات مُصابًا في رأسه، لم يكُن ينزف، ولكن كانت هُناك بطحة كبيرة في مقدمة رأسه، كان يُمسك برأسه متألِما، وإن لم يمنعه هذا من الجري مرّة أخرى إلى "الجبهات" لمقاومة الهجوم الضاري على الميدان، أكلِّم أبي كل فترة قصيرة، كل ساعة أو ساعتين على الأكثر، أُطمئنه وأمازحه

Twitter: @ketab_n

وأُخبره أننا مسيطرون على الميدان، كان مُصابًا بحالة من الهلع من الأخبار التي يراها في التلفاز، يطمئن أني بخير فيهدأ قليلًا، لم أُعرض نفسي لأي مواجهات في هذه الليلة، أعرف قدر نفسي، لا أخاف من شيء في المعركة قدر خوفي من الطوب، من المُستحيل أن أستطيع أن أمسك بطوبة وأُلقيها على أي شخص، ولا حتى أن أُلقيها في الهواء، اكتشفت في هذه المعركة تحديدًا أنني جبانة، لا أستطيع المُشاركة في العنف، العُنف بالنسبة لي هو أكثر ما يثير رهبتي وذعري، أتفهم موقف من يُدافع عن نفسه في ظل معركة مُخيفة، فليفعلوا ما يفعلون، أقصى ما أستطيع أن أفعله أن أتواجد، أنا عدد، رقم يُضاف إلى رصيد المُتظاهرين، ولكنني لا أستطيع المُشاركة بأكثر من هذا. كان هذا ما ظننته إلى أن وجدت نفسي أمسك بخرطوم من البنزين بعد ساعات قليلة وأُساعد أحد المُتظاهرين في ملء زجاجة مولوتوف. كنت أشعُر أنني في ترانس، لا أستطيع الاعتراض، أتاني هذا الشاب الذي يبدو عليه أنه من طبقة بسيطة، طبقة البلطجية كما يطلقون عليها في التلفاز، ولكنه على جبهتنا، أتاني هذا الشاب وأنا واقفة بجانب دراجة بُخارية، كان يلهث ويربط رأسه بشاش مثل مُعظم الرجال بالميدان، يمسك في يده بزجاجة فارغة، قال لي بصوت مُنهك: "بقولك إيه يا آنسة، إمسكي الإزازة دي ثانية كده" أمسكت بالزجاجة بشكل تلقائي، كان هو في هذه الأثناء يفتح تانك البنزين ويركب خرطومًا بدائيًا داخل التانك: "هاتي بقى الإزازة وإمسكي الخرطوم ده كده" قُلت في طاعة: "حاضر حاضر" أمسكت بالخرطوم وأمال هو الدراجة بزاوية مُعينة حتى بدأت قطرات البنزين تنساب داخل الزجاجة، فهمت

Twitter: @ketab_n

بعد ثوان ما أفعل، يا نهار إسود، ماذا سأفعل إن أصابت هذه الزجاجة أحدًا في مقتل وهذا احتمال كبير، كُنت أفكر في هذه الثواني المعدودة أن أترك الخرطوم وأنطلق في الجري، ولكني لم أفعل انتظرت حتى انتهى مما يفعل، التقط من يدي الخرطوم وأغلق التانك، وقال في سُرعة وهو يبتعد "شكرا يا آنسة، منصورين إن شاء الله" تمتمت في سرِّي: "العفو ياخويا، شوف حتروح تضرب بيها مين" في الحقيقة لم يكُن لديّ مُشكلة مع أي شخص يُدافع عن نفسه باستخدام أي سلاح، بل أرى أنه إن قرر أن يظل مُتبعًا السلمية وهو يُهاجَم من أي شخص فهذا نوع من الاستسلام والانهزامية، لكن إن أتى هذا العُنف تجاهي فأعتقد أنني سأنبطح أرضًا بلا أي نوع من المُقاومة.

كان هذا أطول يوم في حياتي بلا مُنازع، اليوم لا يريد أن ينتهي والضرب لا يتوقف.. صوت الدَق على الحديد يُحطم الأعصاب، المعركة تستمر حتى الفجر، نتصل بشكل مُستمر بأصدقائنا لنتأكد أنهم مازالوا على قيد الحياة، لا يوجد من خرج سليمًا من هذه المعركة، جميعنا أُصيب بشكل أو بآخر، من أصيب بطوب قد أُصيب، من طارده البلطجية في الشوارع الضيقة المُحيطة بالميدان أصيب بحالة نفسية من الهلع أو الغضب، هناك آخرون فقدوا أعينهم وبالطبع مات من مات في هذه المعركة الدامية. بدأ الموقف يهدأ في اليوم الثاني من المعركة، مع طلوع النهار كانت الكفة قد مالت لصالح المتظاهرين، بدأ الآخرون في التراجُع أخيرًا، غلبتهم الشجاعة وغلبهُم العدد الكبير وفوق كُل هذا غلبهُم الإصرار. أعتقد أن هذه المعركة قد أثرت بشكل شخصي في جميع

Twitter: @ketab_n

من شارك فيها، من رأى هذا الكم من الدماء والعُنف واستبسل فقط لكي يظل على قيد الحياة، من المُستحيل أن يظل كما كان، هُناك شيء ما قد تغير في كُلٍّ منّا، ازداد فزعي من العُنف وإن كُنت ازددت في تشجيع فكرة استخدام السلاح في مواجهة هذه القوة المُخيفة، ازداد إصرارنا جميعًا على الاستمرار، وفوق كُل شيء ارتفع حس الفُكاهة لدى الجميع، ظهرت الغنائم التي حصل عليها المُتظاهرون من المعركة وقام البعض بتعليقها على أعمدة الكهرباء بالميدان، ظهر لجامان للأحصنة التي هاجمت الميدان، وسمعت أحدهم وهو يحكي لصاحبه عن الجمل الذي ساقه الثوار إلى محطة محمد نجيب وكيف كان الموقف صعبًا "عشان الجمل طلّع عنينا عشان ينزل سلم المحطة"، انفجرت في الضحك من مُجرّد تخيُلي لمشهد الثوار وهم يسوقون الجمل إلى محطة مترو الأنفاق الذي استُخدم كسجن مُرتجل لمن يستطيعون القبض عليه من البلطجية، دارت مُناقشات كثيرة في الميدان حول: "حنعمل إيه بالجمل؟ ندبحه ولا نسلمه للجيش؟" كانت بعض الآراء تقول إننا يجب أن نذبح الجمل ونشويه ونأكله في حين رأت بعض الآراء الأخرى أن هذا سيملأ الميدان بالدماء "واحنا مش ناقصين"، واستقر الجميع في النهاية على تسليم الجمل إلى الجيش، كان هذا من أكثر الحوارات العبثية التي سمعتها في حياتي، جمل أسير وثوّار يناقشون مصير الجمل ويضعون لجام حصان على عامود كهرباء ويعدُّونه في سخرية من غنائم المعركة.. عبث يحدث فقط في بلادنا.

المهم أن المعركة قد انتهت أخيرًا، مرحلة إحصاء الخسائر كانت

Twitter: @ketab_n

مؤلمة، مات المئات وأصيب المئات إن لم يكُن الآلاف، فقد شباب أبصارهم وأعيُنهم، كانت الخُسارة كبيرة ولكن روح الميدان العالية قد عالجت الإحباط في سحر عجيب، أعلن باختين صاحب نظرية الكرونوتوب نجاحه في تطبيق نظريته إلى شكل عملي بطريقة كاسحة، الميدان هو كيان ضخم وواضح، له تأثير وروح وقوة، يشد من الأزر ويداوي الجروح، له وجه وشكل ولسان، يدفعنا في استمرارية غريبة للمضي قدمًا في ما نفعل، ولا يدع لنا فرصة للتراجع أو الإحباط، الدليل على هذا هو حال الناس خارج الميدان، انهيارات وإحباطات ويأس، قليلون هم من يحتفظون بذات الروح المُرتفعة خارج الميدان، وكان الميدان يمتلئ كل يوم بأعداد ضخمة، حتى إن ذهبوا إلى ديارهم مع نهاية اليوم، فهم يأتون صباحًا وظُهرًا وعصرًا ليعطوا المقيمين دفعة من الحماسة والإصرار، لا تفسير لهذه الحالة سوى وجودية الميدان ككيان يدفعنا بقوة أمام وحش السُلطة المُخيف الذي يتضاءل كُل يوم أمام هيبة الميدان وقَضِيته.

Twitter: @ketab_n

29

اليوم يأتي علي ويأتي باقي الأصدقاء، أجلس على الكرسي الهزاز، وهو يجلس على حافته.. أهز قدميّ في توتر، الجميع ينظر إلينا وهذا يوترنا.. يمد ذراعه في أريحية.. يحتضن كتفي، يربت على كتفي في حنين مستتر.. يختلس علي النظر إلى الآخرين، صوت الآخرين عال ومزعج، تتلاشى أصواتهم، تتلاشى تدريجيًا، ونغرق نحن في الصمت.. لا شيء سوى الصمت يجمعنا.. أنظُر إلى يد علي وأتلمسها سريعًا.. دافئة، يتشبث بيدي.. ننتظر حتى رحيل الجميع.. يخفي علي رأسه في كتفي.. وينام.

هذا ما يحدُث كثيرًا عندما يأتي علي مع الآخرين، يتلمسني في خجل، أعرف أنه يُريد أن يرتمي في حُضني كالعادة، أعرف هذا وأراه طوال الوقت، علي ينتمي إلى حُضني، هو كالقطة، وأنا أتحسس رأسه في حنان وأتركه يدفس رأسه في صدري حتى ينام، أحيانًا يُعطيني ظهره ويُكمل نومه ووجهه في الناحية

Twitter: @ketab_n

الأخرى من الكنبة، ولكنه لا ينام إلا ورأسه مدفوس في صدري، أتذكر أبي وهو ينصحني ألّا أتعامل مع علي كأنه ابني، وأنا لا أعرف شيئًا عن مشاعر الأمومة، لم أكُن أمًا من قبل، ولا أعرف ماذا تفعل الأمهات مع أولادهن، لذا أتعامل مع علي كيفما أشعر، أشعر أنه يريد أن يرتمي في حُضني فاحتضنه، أشعُر أنه يريد أن يذهب عني ولا يأتي مُطلقًا، فأترُكه ولا أتصل به، لست مُتأكدة إن كُنت قد ضايقت علي يومًا، بالتأكيد قد فعلت.. يكفيه أيامًا تركته وذهبت إلى حائط المبكى - حمامي الكبير - لأبكي بلا أسباب، أعود إليه بأعين متورمة وبلا تفسيرات، وهو لا يطيق هذا، هو يريدني أن أتكلم لأنه لا يستطيع الكلام، يريدني أن أبتسم، رُبما مرت أيام لم أستطع أن أبتسم في وجه علي، ولكنني كُنت أنظُر لعينيه لأتأكد من وجود صندوق الدُنيا في وجهه.. هو لا يعرف كيف أراه، وأنا لا أعرف - قطعًا - كيف يراني، ولكنني كُنت أرى في وجه علي كل الأراضي التي أرغب في الذهاب إليها، أرى في عينيه الواسعتين براءة عالم لم يتلوث، أراه من خارج هذا العالم، أرى كل ما لا أستطيع الحصول عليه، رُبما قلت له بعض هذه الأفكار يومًا واستخف بها: "إنتي بتبالغي أوي يا نادية، وبعدين إنتي طول الوقت شايفاني عيل صغير، أنا حبدأ أصدق إني طفل فعلًا" أبتسم في شفقة، هو لا يدرك أنه طفل، وأنني على الرغم من حُبي له قد فقدت أي رغبة في الإنجاب بسببه، لا أريد طفلاً يكسر أشيائي ويتركني ويمضي في طريق آخر فجأة لمُجرد أنه شعر أنه يريد أن يبتعد بلا أي مبررات، لا أستطيع أن أتحمل هذا من طفل أُنجبه بنفسي، بعض الولاء يا علي، بعض الاستمرارية، بعض الأمان.. لابُد من بعض الأمان.

Twitter: @ketab_n

وعلى الرغم من تذمُر علي أحيانًا من وصفي المُستمر له بالطفولة، إلا أنه كان يفرح بداخله أنني أراه لا يتلوث، هي طبيعته، عندما يأكُل يلوث قميصه ويلوث يديه وذراعيه، يتلوث من الخارج فقط، علي لا يتلوث من الداخل، هي طبيعته، حتى إن قرر أن يكبر وأن يصبح مثل الرجال الآخرين لن يستطيع. أضحك معه وأُذكره بذلك اليوم عندما ذهبنا في رحلة صحراوية سويًا مع أصدقائنا، كالعادة كلهم يتكلمون بصوت عال في الخيمة الصغيرة التي تجمعنا.. عشرة كانوا أم أكثر؟ لا نتذكر.. فقط نتذكر الضحكات العالية والقصص الكثيرة والصوت العالي.. انسَحَبت يومها في هدوء إلى الفراغ بالخارج.. الأمد يقطن بالخارج.. الأمد أمامي، أمد السماء وأمد الصحراء المطلقة التي أعرفها جيدًا، أعرف الصحراء وأحبها.. أستلقي في صمت على الرمال الناعمة، أحاول أن أغوص إلى أبعد طبقة من طبقات الرمال.. أنظر إلى السماء.. منذ كُنت طفلة وأنا أنظُر إلى السماء، أبحث عن الثلاث نجمات المتراصة في صف واحد، أخبرني هاتف مجهول منذ سنوات أن النجمات الثلاث يجلبن الحظ والحب، وكُنت دومًا أجدها ولا يجدني الحظ أو الحب.. كانت السماء مليئة بالنجوم هذه الليلة، لم أجِد نجماتها الثلاث هذه المرة.. وَجَدت عشر نجمات تتهاوى في ثوان.. رأيت علي في ذات اللحظة يخرج من الخيمة.. يأتي في خفة ليستلقي بجانبي.. يضع ذراعيه خلف رأسي وينظر عاليًا.. يبحث عما أنظُر إليه.. إلتَفَتْ إليه، هو خارج الرمال، لا يغوص مثلي.. طَبَعتْ على خده قبلة.. ابتسم ونهض من مكانه بعد دقائق.. وانطلق يجري أمامي.. أسمع ضحكته من مكاني وأغوص أكثر داخل طبقات الرمال..

Twitter: @ketab_n

رُبما تأكدت في هذه الليلة أنه لن يكون معي أبدًا، أنا داخل الرمال، في أبعد طبقة وأستمر في الغوص، وهو يجري ولا تلمس أقدامه الأرض.

علي لا يتذكر مُعظم ما يحدُث بيننا، لديه ذاكرة انتقائية، كنت أشعُر أحيانًا أنه يتعمد أن ينسى حتى لا يضطر أن يتألم يوم نبتعد عن بعضنا البعض، وأنا أُصر على أن أُذكره بما مر بنا من لحظات، أنا أيضًا لدي ذاكرة انتقائية، ولكنني اخترت ألّا أنسى، هو لا يعرف أنني أُحبه كي أتَذَكرُه بعد أن نبتعد، إن كان قرار الفراق حاضرًا بيننا طوال الوقت دون أن نذكُره، فلنسجِل اللحظات بيننا، هي تبقى والباقي إلى زوال. أنتظر حتى يُريح رأسه على صدري قبل أن ينام وأبدأ في سرد لحظاتنا سويًا في خفوت.. هل تذكُر يا علي عندما سافرت إلى رضوى؟ في أرض بعيدة وباردة ومطارات عديدة وسفرات لا تنتهي، كُنت أفتح كل أجهزة الاتصالات الألفينية لأتصل بك.. أنت لا ترُد.. فجأة لا ترُد على كُل اتصالاتي.. وأنا أجلس في غرفة جميلة في ولاية دافئة أرى فيها الشمس في ثلج الشتاء، لا أنام إطلاقا.. ساعات طويلة أرى فيها النهار والليل ولا أنام.. هل تذكُر يا علي عندما ظهرت فجأة لتُخبرني على الهاتف أنك مريض، وأنا على بُعد آلاف الأميال.. هل تذكُر تلك اللحظة المُعينة التي أخبرتني فيها أن الكون قد اسود فجأة، وأنني كُنت آخر من تُفكر فيه عندما تلاشى الوجود من حولك.. كُنت أجلس في غرفتي بالولاية الدافئة يخفق قلبي وأعرف أنك المُختار الوحيد.. وأعرف أن لا شيء يهم سواك.

Twitter: @ketab_n

يمضي الوقت سريعًا.. اليوم كان جميلاً، كان الطعام جيدًا، وكانت رائحة علي تملؤني.. يضع رأسه داخل كتفي.. لم ينم بعد، أحتضن رأسه وأستمتع به.. همهمات الطفل الصغير.. هو يتكلم هامسًا، يهمهم بكلمات.. رُبما يغني.. أربِّت بذات إيقاع الكلمات على رأسه وألصق شفتي على رأسه.. الكلمات ليست مترابطة.. ليست كلمات، هي همهمات طفل يتعلم الكلام حديثًا.. بعد ساعات يسألني علي: هل هذا طبيعي؟ هل أنا مريض؟ أرُد في رفق أن الجميع مرضى سواه.. يتشبث بمعصمي مثلما يفعل منذ اللحظة الأولى.. ويبحلق في السقف ويمص إصبعه وينام.. أنت يا علي لا تتذكر لحظاتنا سويًا، وأنا اخترت أن أنسى اللحظات الأُخرى وأتذكر لحظاتي معك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

30

هدأت الأحوال بالميدان، مرّ يومان بعد المعركة الكُبرى وازداد حس الفُكاهة لدى المُتظاهرين.. هناك ليال من الغناء حتى الصباح، نفترش الرصيف ونجلس سويًا، ألتحف معطفي السميك حتى لا أضطر أن أستخدم الأغطية التي تنبعث منها رائحة الجاز وتتقافز الحشرات الصغيرة عليها، يلتحف جلال الغطاء القذر وينام في عُمق مُريب كأنه ينام في غرفة نومه المُريحة.. أغتاظ من نومه المُنتظم وأُقرر أن أُضايقه: "جلال، جلال، جلال، إصحى عايزة أتكلم معاك"

"بس يا نادية سيبيني أنام"

جلال، جلال، جلال، إصحى ينهض في عصبية: "عايزة مني إيه يا نادية، سيبيني في حالي، عايز أنام" أقول في دلع ليس محله ولا مكانه: "إصحى إتكلم معايا، مش عارفة أنام" يرُد في سُخرية: "مش عارفة تنامي عشان بردانة، اتغطي بالبطانية وإنتي تعرفي

Twitter: @ketab_n

تنامي كويس يا حبيبتي أقول في برود: "البطانية مش نضيفة وفيها حشرات" يرُد في سخرية أكبر: "هو انتي فاكرة نفسك نايمة في الهيلتون؟ إنتي نايمة في الشارع، بطلي تناكة واتغطي ونامي"

"قوم يا جلال نتمشى شوية، أنا زهقانة، عشان خاطري قوم معايا" تقلق ليلى على أصواتنا: "اتهدوا بقى وناموا، صحيت من صوتكو، اتغطي ونامي يا نادية وخلي الليلة تعدي على خير أقول في عناد: "مش حنام مش حنام، حد يصحى يتمشى معايا وإلا حفضل أصحيكوا كُل ما تناموا" ييأس جلال من الزن المتواصل فينهض ويجُرني من ذراعي: "اتفضلي، أصلنا عالبحر، عايزانا نتمشى عالبحر، أُمال لو ما كُناش في ثورة كنتي عملتي إيه" أمشي معُه في انتصار وأسمع ليلى تتمتم بصوت مُنخفض: "غوروا بقى خلونا نتخمد"

نتمشى معًا في الميدان، الفجر لم يؤذن بعد، أتأمل الخيام الكثيرة بالصينية في مُنتصف الميدان، مُعظم المُتظاهرين نائمون بعد يوم مُرهق من الاعتصام. يوجد ضوء كشَّاف بالمُستشفى الميداني، ويوجد بعض الشباب الصغير يجلسون في دائرة بالقرب من مُجمع التحرير، أشد جلال من يده حتى نقف بالقُرب منهم، لا يتعدي عُمر أكبرهم العشرين عامًا، نقف على مسافة معقولة منهم ونسمع غناءهم لأغاني محمد منير القديمة والشيخ إمام، أُدندن معهم وأقول لجلال: "تعالى نروح نقعد معاهم" يستسلم جلال لإلحاحي ونذهب لنجلس معهم، يرحبون بِنا ويتحمسون أكثر

Twitter: @ketab_n

للغناء.. أتأمل وجوههم وأنا مُبتسمة، عندما كُنت في سنوات مراهقتي، كُنت فتاة عصبية، سخيفة، أستمع إلى الموسيقى في سماعات الكاسيت الكبيرة ولا أدندن بصوت عالٍ أبدًا، كان دمي ثقيلاً على الجميع ولم أكُن أُرحب بالغرباء في أي جلسة، بل كُنت أتدرب أمام المرآة على تكشيرات مُنفرة حتى يبتعد من يفكر مُجرد التفكير في الاقتراب.. أرقُب هؤلاء الأولاد وأبتسم بتلقائية وأشعر بقلبي يخفُق في حنين تجاههم.. أعتقد أنهم لن يضطروا أن يمتلئوا بالمرارة مثلي أو بالخوف مثل ليلى، أو بالتردد مثل ريما.. فقط جلال هو من يشبههم، سيظل جلال يحتفظ بروحه الطازجة حتى وهو في السبعين من عمره.. خُلق جلال بشقاوة وتلقائية وأمل الصغار وسيظل كذلك أبدًا.. حتى عندما يغضب، يشوح بذراعيه في تأفف ويبتعد عنّا وهو يشيح بوجهه مقموصًا.. لهذا أُحب جلال، لأنه الوحيد فينا الذي يؤمن بالقصص الخيالية ولا يبحث عنها في الآخرين مثلما أفعل.. جلال أكثرنا إيمانًا وأكثرنا حماسًا وأكثرنا انطلاقًا.. أنظر إلى وجهه التعِب والذي يضحك مع الأولاد ويُغني معهم، وأحسده على إيمانه ونقائه ..لا أعرف ماذا أفعل، أمسك بكف يده في حنان فيشد على يدي بتلقائية وهو مُندمج في الغناء وفي هز رأسه يمينًا ويسارًا مع اللحن.

أنهض من الجلسة الغنائية الصغيرة وأبدأ في التجول حول الميدان، أجد اللجان الشعبية تقف على جميع المداخل، تشير لي بعض الوجوه المألوفة "صباح الفُل" أبتسم وأرُد التحية، أقف أمام مجموعة من العساكر تقوم بغسل دبابة تسِد أحد مداخل الميدان.. هناك وعاء غويط، غالبًا يحتوي على تِنر أو مادة مُنظفة،

Twitter: @ketab_n

يمسك العساكر بقطع قماش مُتسخة، يضعونها داخل الإناء ويعصرونها في عناية ويقوم كل واحد منهم بحَك الفوطة في جزء من المُدرعة، يفعلون هذا في مطلع كُل صباح، المُدرعات تمتلئ بكتابات ثورية وشتائم مُقذعة للنظام وللدولة الساقطة، غالبًا هذا يستفز قادتهم، يجب أن يقوم الضباط من نومهم ليجدوا المُدرعات والدبابات نظيفة، كأنها جديدة، يبدأ يوم جديد فيبدأ المُتظاهرون في التلوين والكتابة على المُدرعات من جديد، العساكر يراقبون في غيظ ليستيقظوا في اليوم التالي لينظفوها وهكذا يتكرر السيناريو يوميًا.. أمُر بجانب عملية التنظيف الصباحية فأقول بصوت عالٍ يسمعه العساكر "ما تنضفوش بضمير أوي كده، حيتوسخوا تاني على فكرة"

الوقت يمضي في سرعة، غالبًا جلال ذهب ليُكمل نومه بعد أن غادرت الجلسة الغنائية، أتصل بأبي: "صباح الفُل، عايز تنزل ولا أجيلك أنا؟" يرُد في سُرعة: "لأ أنا حجيلك استنيني على مدخل قصر النيل" أضحك بصوت عال في الهاتف: "ما صدقت عايز تنزل، ماشي كلمني وإنت واقف برّه، أنا أصلا في الميدان، ما تفطرش وخلينا نفطر مع بعض" آذهب لأشتري ساندوتشات الفول والطعمية، أذهب للمستشفى الميداني وأطلب قرصًا فوارًا لأتناوله بعد الإفطار، قولوني لم يعُد بحالة جيدة، وإن لم أتناول الفوّار سأظل أتقيأ طوال اليوم.. يأتي أبي بعد أقل من عشرين دقيقة، أذهب إليه، أُقابله على مدخل قصر النيل، أحتضنه وأعطيه الساندويتشات، يبدأ في تفقُد الميدان بنظرات مُتفحصة، يقول إن الأعداد لم تعُد كبيرة مثل أوائل أيام الاعتصام، أقول له أن يحمد

Twitter: @ketab_n

ربنا: "إنت حتتأمر، الله يرحم المظاهرات اللي كنت بتجرجرني فيها وكُنتوا كُلكوا على بعض ما بتكملوش ميت نَفَر، بتتأمر إننا النهارده سُتُميت ألف مش مليون؟" يقول في جدية: "مش بتأمَر، بس الفكرة في إن فعلًا العدد الكبير هو اللي حاميكوا من العُنف" أجده يمشي في اتجاه مدخل باب اللوق، هناك مُدرعة ترقد على المدخل، ينظر إلى العساكر والضُباط، نظل نمشي حول المُدرعة في دوائر حتى أمَل المشي، أقول في ضجر: "مزهقتش؟" يقول في حماس: "زهقت تعالي نروح عند مدخل شامبليون" أنظُر إليه في استغراب ولكنني أُطاوعه وأذهب إلى مدخل شامبليون، نبدأ في المشي المُنتظم حول الدبابة التي تسِد مدخل شامبليون، ندور في ذات الدوائر وهو يتفقد المُدرعة وينظر إلى العساكر والضباط في أعيُنهم، أقول في فضول: "بقولك إيه، هو في إيه؟ إنت بتلف حوالين الدبابات ليه؟" يقول: "مش عارف، نفسي أعرف هم عايزين إيه، أصلهم مش واقفين هنا حماية ليكوا، إوعي تصدقي حوار إنُهُم بيحموكوا، لو كانوا عايزين الناس ما تمُتش كانوا عرفوا يحموكوا وقت ما الأحصنة دخلت عليكوا، أنا بس مش فاهم هم واقفين هنا ليه؟" أقول في تردد: "والدوران حواليهم لما رجلينا تتكسر حيفيد بإيه؟ عرفت إنت كده هُم واقفين هنا ليه؟" قال في حيرة: "مش عارف، حسيت إني لمّا أبُصلهم من قُريب يمكن أفهم، بس أنا حاسس إن العساكر والظُباط اللي واقفين هنا مش فاهمين حاجة أصلًا، مش عارف بس أنا قلقان، قلقان من العساكر الكتير، خُديها قاعدة، وجود العساكر دايمًا بيقلق حتى لو ما عملوش حاجة في الأول، إقلقي منهُم، إوعي تفتكري إنك إنتي وصحابك في أمان عشان هُم واقفين هنا، بالعكس، إنتو مُمكن

Twitter: @ketab_n

تكونوا في خطر أقول في استخفاف: "بلاش بارانويا، أنا كمان بقلق زيَّك من العساكر، بس مفيش أي داعي للبارانويا والذعر ده، أهُم واقفين بقالهم من يوم المعركة الأخرانية ما حدش فيهُم عملِنا حاجة". يقول بثقة: "مسيرهم يعملوا، مش حيضربوكوا بالدبابات يعني، ميقدروش أصلاً، بس يقدروا يقرفوكوا كويس، لازم تفضلوا كتير، خطر إن العدد يقل"

نظل نسير في الميدان في ذات الدوائر، دوائر حول الدبابات والمُدرعات، أبي يرقُب العساكر في حذر، يبدو لي الموقف مُضحِكًا، هو يحاول انتزاع الموقف الخطير من قلب الموقف العادي، لم يكُن الميدان مهددًا الآن، رُبما الأعداد لا تتجاوز عشرات الآلاف ولا تصل للمليون في بعض الأيام، وبصراحة هُناك أيام لم تكُن الأعداد تصِل لمائة ألف، ولكن لا يزال العدد كبيرًا.. كان هُناك الكثير من السياسة تدور خارج الميدان، وقليل منها داخله، الإصرار على إسقاط النظام يفوق أي شيء آخر، في الخارج يجتمع الساسة، تجتمع لجان ومؤتمرات عديدة، هُناك الكثير من المحللين السياسيين والخُبراء والفُقهاء والمسئولين، ألوان وأشكال من المِهن السياسية التي تبدو خطيرة من أسمائها، يحاولون وضع الخطط المُختلفة للخروج من الموقف السياسي الحرِج الذي يشعُر به الجميع، يحدث كُل هذا، الميدان يُصفِر في راحة واطمئنان، افعلوا ما شئتُم، فسيبقى الميدان ممتلئًا حتى يسقُط الطاغية.. لم يكُن أحد مِنا مهتمًا بالسياسة التي تدور خارجًا، الميدان يقف سندًا للجميع، صلاة وغناء ونعوشًا رمزية، نكات ولوحات وثبات على موقف واحد ..لا رحيل حتى وإن أصر الساسة والسادة بالخارج على هذا.

Twitter: @ketab_n

31

مرّت عشر سنوات مُنذ رأيت زِين للمرّة الأخيرة، تأخُذني قدماي دائمًا إلى المبنى الذي كان يعمل به، عشرات المرات أجد نفسي أصعد السلالم المؤدية لمكتبه، أتمالك نفسي في اللحظة الأخيرة وأتراجع. أفتقد زين، عشر سنوات وأنا أفتقد زِين وأفتقد أن أُريح رأسي على فخذه وأنام. عشر سنوات مضت وأنا أمُر من تحت البناية، أكاد أشُم رائحته وأشعر بظله على الحائط، ينزل من البناية ليأخُذ بيدي ونمشي سويًا في الشارع بلا هدف، عشر سنوات منذ رأيت زِين للمرة الأخيرة.

أجلس للمرّة الأخيرة على أريكته، رأسي يختلج على فخذه، لماذا ترتعش عضلة فخذك يا زِين؟ لماذا تهتز يداك وأنت تحتضنني؟ لماذا أسمع خفقات قلبك مضطربة؟ لماذا تضطرب خفقات قلبي بالتبعية؟ لماذا أشعر أنني أريد البُكاء الآن؟ هناك شيء سيئ يحدُث.

Twitter: @ketab_n

عرفت الخبر من أبي، كُنت في الجامعة واتصل بي أبي يطلُب مني أن أذهب إلى البيت حالاً، ذهبت وقلبي يرتجف، هناك شيء مُقبض يحدث.. اتصل أحدهم بتليفون البيت.. قال الخبر في حُزن وارتبك أبي، هو لا يريد أن يكون مصدرًا للشؤم.. اتصل بي.. أشم رائحة الموت.. أنا أُستاذة في الإحساس بالموت، مثل القطط، أشعُر بالموت قبل أن يحدُث، شيء ما يعتصر قلبي، شيء ما يقف في ثبات على صدري.. لا أستطيع أن أتنفس جيدًا.. الدم يرتفع إلى رأسي، أشعر برأسي يسخن وأُذني تلتهبان.. أسمع الخبر.. مات زين.. أشعُر أن روحي تُفارق جسدي ببُطء.. هناك ثِقل ما يحيط برأسي.. كأن رأسي وضعه أحدهم فجأة داخل صبّة خرسانية تضغط عليها من الجانبين.. هُناك شيء سيئ يحدُث.. هناك ضغط شديد على جسدي، لا أعرف من أين يأتي هذا الضغط ولكنني أشعر بجلدي كأنه يتشقق، هناك دقات عنيفة تدوي داخل رأسي.. أدخل غُرفتي في سُرعة وأخبط رأسي في الدولاب.. لا أبكي إطلاقًا.. دقات رأسي على الدولاب تصنع تناغُمًا ما مع الدقات داخلي، هناك رجفة قوية تسري في جسدي كُلّه.. أشعُر بالبرد الشديد.. من أين يأتي البرد؟ من داخل الدولاب؟ أُغلق الدولاب برأسي.. وأنا أنظر إلى الخشب الداكن.. يعني إيه مات؟ مفيش حاجة اسمها مات كده عادي، يعني إيه مات؟ أرى أبي بطرف عيني يبكي في قلة حيلة.. هو لا يبكي زين، هو يبكي قلة حيلته ويبكيني.. أما أنا فللمرة الأولى أشعُر بضياع وتشتت لم أُجربه من قبل.. أجلس على حافة السرير.. أنظر للأرض في ثبات.. أحاول تمرير الخبر إلى رأسي، جسدي لا يطاوعني ويُصر على المقاومة ..أتمتم في خفوت: "هو فيه حد بيموت فجأة كده؟

Twitter: @ketab_n

طب أنا مش عايزاه يموت دلوقت، طب مش كنت أقابله طيب قبل ما يمشي أعتقد أنني قد قُلت الكثير من الكلمات التائهة. كان يومًا مُخيفًا، كان هذا اليوم هو نهاية جلوسي في حُضن زين، لن أريح رأسي على فخذِهِ ثانيةً، لن يقرئني الشعر، لن أتلو عليه أشعارًا ترجمتها على استحياء، لن يزجُرني عندما أستخدم الكبريت بدلاً من القداحة.. لن يربت على خدّي في حنان ولن أنام وهو يتحسس شعري بأصابعه الرقيقة، خلاص ما بقاش فيه زين، زين خِلص ومش حيرجع.

ظللت في حالة من الصدمة بضعة أشهُر، اكتشفت خلالها أنني لا أستطيع استيعاب فكرة الموت بسهولة.. كان أبي يُعطيني المُهدئات حتى أنام، كنت أستيقظ لأجد الدموع تملأ وجهي، لم أعرف أن الإنسان يستطيع أن يبكي وهو نائم إلا بعد أن فقدت زين، وأنا لا أبكي، بشكل عام لا أبكي.. دموعي بعيدة وصعبة، ولكنني كنت أصحو لأجد الدموع على وجهي طازجة وحاضرة.. أصر أبي في هذه الأيام أن أنام بجانبه، كُنت أشعُر به يستيقظ في أوقات متأخرة ليتحسس نبض يدي، يتأكد أنني مازلت أتنفس ولم أمُت من الحُزن مثلاً.. لا أعرف إن كانت هذه مُبالغة منه أم أن حُزني على زين كان هو المُبالغة نفسها.. شعرت بالغدر لأول مرة.. لم أشعر بهذا الغدر عندما ماتت أُمي، حزنت الحُزن الطبيعي، ولم أبكِ بالطبع، ولكني لم أتعرف على هذا الإحساس بالغدر إلا عندما فقدت زين.

أتت معي رضوى إلى العزاء.. كُنت مُتماسكة، أجلس في صمت

Twitter: @ketab_n

وأرتدي السواد ولا أتكلم.. أتذكر أنني يومها، طلبت من رضوى أن نخرُج من سرادق العزاء الذي كان هادئًا بشكل غريب.. كُنت أنظر للوشوش الجالسة وأتمنى بداخلي أن يموتوا جميعا ويعود لي زِين.. خرجت مع رضوى إلى الشارع.. بدأت أقول كلمات غير مترابطة، أحكي لها عن زِين، أحكي عن جلساتنا معًا.. أقول لها إن زِين قد مات حتى يرتاح الجميع سواي، حتى أُقضي ما تبقى من عُمري في خوف.. تتذكر رضوى هذا اليوم وتقول إنها لم ترني أبدًا في مثل هذه الحالة الطفولية من الفزع، أصابني موت زِين بالفزع أكثر مما أصابني بالحُزن.. أقول لرضوى إنه لم يكُن عجوزًا، لماذا يموت وهو ليس عجوزًا؟ لماذا يموت وهو ليس مريضًا؟ ترُد رضوى أن الناس تموت بلا أسباب، تموت فجأة وعلى غفلة وبلا مبرر.. تقول رضوى إنني يجب أن أتماسك لأن أبي حزين من أجلي، أقول لها: إنني خائفة، لا يوجد سبب للخوف، تقول رضوى: "عيطي يا نادية العياط حيخليكي كويسة" كُنا صغارًا، لم نكُن قد اعتدنا أن نفقد أشخاصًا قريبين.. لم نكُن قد اعتدنا أن نفقد الأحباء.. كُنا صغارًا ولم نعتد التعامُل مع الموت.. كُنا صغارًا ولهذا فزعنا وارتعبنا، أمّا الحُزن فقد أصابنا بعد سنوات، عندما فهمنا ما حدث.

كان يومًا قاسيًا، ذهبت إلى المنزل ودخلت مُباشرة إلى المطبخ.. أخرجت أكياسًا من الخضار المُجمد من البرّاد، أخرجت طبقًا من اللحم، مكعبات لحم مُثلجة ملمسها كالصخر.. وضعت كل الأكياس تحت المياه الساخنة ووقفت أنظُر إليها في ثبات.. أشعُر برذاذ المياه الساخنة على وجهي وذراعي.. وقفت نصف

Twitter: @ketab_n

ساعة أمام المياه، رُبما أكثر.. أقف بثبات مثل التمثال.. أتحسس الأكياس لا أجد مكعبات اللحم قد لانت قليلاً.. أقشر بصلة كبيرة، الدموع تنهمر من عيني بفعل البصل.. أُقشر البصلة في بُطء وأضعها في الإناء النحاسي على عين البوتاجاز، أضع قليلاً من الزُبد في نفس الإناء وأقف أمام البوتاجاز في صمت.. أتذكر كل لحظاتي مع زين.. أتذكر رقته وكلامه الحاني، أتذكر كلماته عن الموت وأتذكرني وأنا أرجوه أن يتوقف عن سرد الشعر الكئيب وهو يضحك ويربت على كفيَ مُطَمئنًا.. قرأ لي زين الشعر المُقبض، كانت الكلمات حزينة، وكان هو يُصر على تلاوتها في أُذُني.. أنزعج وأُحاول أن أنهض وأتركه ولكنه يمسك بي في رفق.

سألتُك أن تريديني خريفًا ونهرًا
سألتك أن تعبُري النهر وحدي
وتنتشري في الحقول معًا
سألتك ألا أكون وألا تكوني
سألتك أن تريديني
خريفا
لأذبل فيك وننمو معًا
سألتك ألا أكون وألا تكوني
سألتك أن تريديني
نهرًا
لأفقد ذاكرتي في الخريف
ونمشي معًا

Twitter: @ketab_n

وفي كل شيء نكون
يوحدنا ما يشتتنا

فسد الطعام واحترقت البصلة واصفرّت مكعبات اللحم.. لا زلت أقف أمام الطعام عاجزة، أشعر بيدي مشلولة، لا أستطيع حتى أن أرفع الإناء من فوق عين البوتاجاز.. لا أعرف كم مضى من الوقت ولكني أعرف أنه وقت كافٍ كي يفسد كل ما كُنت أود أن أعد من طعام.. أُلقي بكُل شيء في صفيحة القمامة وأنظر إلى اللحم والبصل والخضار بألوانه الشاحبة، يمتزج كل شيء ببعضه البعض في كيس القمامة الكبير.. أنظر إليهما لحظات ثم أذهب لغُرفتي وأنام.

Twitter: @ketab_n

32

يبدو اليوم كئيبًا من بدايته، أعلنت في اللحظة التي فتحت فيها عيني بالميدان أنني تعيسة لأنني صحوت وكنت أتمنى ألا أستيقظ وأن أموت في هدوء أثناء نومي لأنه "مفيش فايدة"، تنهد جلال وقال في ملل: "بدأنا النكد من بدري النهارده، اصطبحي يا نادية" أقول في مرارة وأنا أفرك عينيّ: "بأمارة إيه؟ أصطبح بأمارة إيه؟ عدّى تمنتاشر يوم يا جلال، تمنتاشر يوم وإنت بتقوللي إن الدُنيا تمام وإنها ثورة، يا عم فُكك بقى، مفيش فايدة، ما تبقاش عنيد وخلاص، مفيش فايدة في البلد دي، مفيش فايدة" يقوم جلال من مكانه ويُساعدني على النهوض، أرى ريما وليلى تتبادلان النظرات التي تقول بلا كلام: "اهي صحيت والنكد حيشتغل"، يقول جلال أنه سيصطحبني في جولة صباحية بالميدان، أضع وجهي في الأرض في يأس وأتركه يمسك بيدي ويسوقني في تؤدة حول الصينية، أمشي معه ورأسي مُتجه إلى الأرض، أسمعه بلا كلام ولا رد: "عارفة يا نادية، احنا بقالنا تمنتاشر يوم هنا، إنتي بتباتي ساعات، وبتروَّحي ساعات،

Twitter: @ketab_n

ريما وليلي كمان زيُّك، وناس كتير بيروحوا ويجوا، فيه ناس كمان ممشيتش ولا مرَّة، قاعدين بقالهم تمنتاشر يوم في الميدان، حاجة غريبة أوي إن الناس تبقى مصممة كده على حاجة، كان ممكن يمشوا لمّا الجيش نزل أو لمّا الجمال والأحصنة والبلطجية هجموا عالميدان وشافوا الموت بعنيهم، كان ممكن يمشوا لمَّا الأعداد قلَّت والأمل بدأ يقل، كان ممكن يمشوا لمَّا فيه ناس بدأت تيجي تتفرج عليهم زي القرود في جنينة الحيوانات، عارفة؟ كان ممكن يمشوا لما التليفزيون قال عليهم يستاهلوا الحرق وقالوا إنهم خونة ومأجورين وجواسيس.. كان ممكن يمشوا ميت مرَّة، عارفة يا نادية يا حبيبتي ما مشيوش ليه؟" أنظر إلى حذائي الرياضي الذي لا أتذكر لونه الأصلي من كمّ التُراب المُلتصق به "ما عرفش حاجة، كُل اللي أعرفه إن قعدتهم مش جايبة همَّها"

"أنا حقولك ليه، ما مشيوش عشان همّا عندهم أمل ومصممين ينفذوا اللي نزلوا عشانه، وشكلهم كده مش حيمشوا، واللي حضَّر العفريت يصرفه لو يعرف، بس عارفة يا نادية، همّ ممكن يمشوا النهارده، عارفة ممكن يمشوا ليه؟" يقول هذا ويقف فجأة في مكانه، أرفع رأسي المطأطئ منذ بدأنا المشي لأجدنا واقفين على مدخل كوبري قصر النيل، يُكمل جلال: "عشان لمّا الناس اللي في الميدان دول يصحوا ويشوفوا وشك اللي يقطع الأمل والخميرة من البيت حيطفشوا يا نادية، وشِك بقى كئيب يا نادية، العكارة والنكد اللي إنتي فيهم حتفضي الميدان.. عشان كده إنتي حتاخدي بعضك يا حبيبتي وحتتمشيلك كام ساعة كده برّة الميدان، ساعة، اتنين، عشر ساعات، إنتي وضميرك، وده حفاظًا عالثورة يا

Twitter: @ketab_n

نادية" أنظر إليه غير مصدقة: "كده يا جلال؟ بتطردني من الميدان؟ هو ميدان أبوك؟" يقول جلال وهو يضحك في مرح: "لأ يا حبيبتي أنا بحاول أحافظ على الروح المعنوية للمتظاهرين، مش عايزهم يصطبحوا بالبوز ده" أقول له: "إنت عايز تحافظ على روح أمك يا جلال عشان أنا صح وإنت مش عايز تعترف إني صح" يصيح وهو يبتعد عني: "ماشي يا نادية، أنا بحافظ على روح أمي، إتمشيلك شوية وإرجعي تكوني فكيتي وشك شوية، سلام" أجد نفسي وحدي على كوبري قصر النيل، أفكر في الرجوع، ولكني أنظر إلى الميدان وأقرر أن مفيش فايدة، أستدير وأقرر أن أتمشى على الكورنيش وربما أذهب للبيت لأبي إذا تعبت من المشي.

أمشي على الكورنيش وأنا مازلت أنظر إلى الأرض، ما زالت نظريتي تعمل بنجاح، لا نستطيع إكمال أي شيء حتى النهاية، تقفيلنا سيئ، نصنع تراكمات ولكن لا نصنع نهايات جيدة، وهذا ينطبق علينا في كُل شيء، نصنع أفلامًا جيدة تنتهي نهايات ساذجة، قصص حبنا رومانتيكية ورائعة تنتهي بدراما وتعقيدات بلا مبرر، نحن جيل لا يُجيد تقفيل النهاية أُفكر في كُل هذا وأنتبه فجأة على صوت تظاهرة تأتي من خلفي.. بدأت التظاهرات مبكرًا اليوم.. أنتحي جانبًا في ضجر وأنظُر خلفي لأجد أعدادًا ضخمة من المتظاهرين يملأون الكورنيش على مدد النظر.. كانوا يبدون من مكاني ككيس أرز عملاق تم نثر حباته على طول الكورنيش.. يرتدون ملابس مميزة، فهُناك فوج يرتدي أرواب المُحاماة، وهُناك فوج يرتدي معاطف الأطباء، وهناك

Twitter: @ketab_n

سيدات وفتيات، أعداد غفيرة.. كان المنظر يبدو كأنه لقطة من أوبريتات الستينيات، الجيل الصاعد ومجاميع الممثلين الذين يمثلون أدوار فئات الشعب.. الفارق فقط أنهم لا يمثلون لقطة من أوبريت موجه للنظام، بل هو معادٍ له بشراسة شديدة.. أقف على الرصيف المُقابل للنيل، لا أعرف إلى أين يتجهون.. أمشي بضع خطوات على الرصيف ثم أنضم إلى التظاهرة وأهتف خلف من يهتف بصوتي الرفيع بحماسة وقوة.. تتجه التظاهرة إلى المبنى الإعلامي الكاذب.. أتصور من داخلي أنها ستكون مجزرة، الأعداد رهيبة، تفوق أعداد المدرعات والعساكر والضباط الذين يحرسون المبنى.. هؤلاء الوحوش - المتظاهرون - سيقتحمون المبنى وستكون مجزرة وسينتصر العدد وسيحتلون المبنى وتحدُث الثورة.. ارتجف قلبي من السعادة وأسرعت من خطواتي في اتجاه المبنى.. وصلت الأعداد إلى المبنى وامتدت عدة كيلومترات قبله وبعده.. رأيت العساكر يتوترون فوق مدرعاتهم والضباط يقومون باتصالات من أجهزة الاتصالات التي يحملونها.. أقول في سرّي إنهم خائفون وهذه علامة جيدة تدُل على قوتنا، يالالا حنقتحم إمتى بقى؟ يقف المتظاهرون أمام المبنى، ويبدأ من هُم في الصفوف الأولى في تبادل الأحاديث مع العساكر، أسمع أحدهم يقول لعسكري صغير السن: "إيه يا دُفعة صباح الفُل، إنتو حتفضلوا سايبينا كده؟" لا يرُد العسكري ويبتسم وهو يُشيح بوجهه، أعتقد أن هذه اللحظة التي سيصيبني فيها الشلل، دُفعة؟ صباح الفُل؟ الكثير من المودة في الجُملة المُختصرة، هذا ليس بأداء ثائر، لماذا لا يقتحم أحد هذا المكان الذي اجتمع الجميع على فساده وجبروته؟ أدركت فيما بعد أنه كان هُناك اتفاق ضمني

Twitter: @ketab_n

غير مُتفق عليه بعدم اقتحام أي شيء، الناس تصل إلى الهدف ويقفون أمامه ولا يقتحمونه.. لماذا؟ لا أعرف، رُبما خوفًا من رد الفعل، حفاظًا على السلمية المزعومة، تودُدًا وثقة مبدئية في العساكر الذين يحرسون الهدف، حرصًا على المنشآت العامة التي ثبت في مواقف مُختلفة أن هُناك من يجِلُّها أكثر من الأرواح والأشخاص، لا أجد سببًا ولا أعرف لماذا في هذه اللحظة من القوة العاتية رفض المتظاهرون اقتحام هذا المبنى؟ لم يرفضوا فقط اقتحامه بل قرروا الوقوف أمامه حتى سقوط النظام، وعندما سألت أحد الواقفين على سبيل تضييع الوقت: لماذا لا يذهبون إلى الميدان، رد في ثقة: "الميدان على آخره، ما فيهوش مكان، هنا حيخافوا مننا أكتر، أصل المكان ده مُهم أوي، لا مؤاخذة إنتي صغيرة ومش فاهمة" أهز رأسي موافقة في صدق: "أيوه والله معاك حق، أنا فعلاً مش فاهمة حاجة"، المُهم أنني أجد نفسي واقفة لمدة لا تقل عن الثماني ساعات في ذات المكان، لا أتحرك سوى من الشجرة أمام المبنى إلى الصف الأول أمام الأسلاك الشائكة لأتفرج على وشوش الضُباط وأحاول قراءة أي تعبيرات على وجوههم، لا أفهم شيئًا فأعود إلى الشجرة مرَّة أُخرى.

بعد مرور ثماني ساعات، بدأت أشعر بالملل، قررت الذهاب إلى البيت لأطمئن على أبي، اتصلت به ووجدته متوترًا: "بقولك إيه أنا بألبس ونازل" أرُد في عصبية: "رايح فين، يعني إيه نازل فجأة كده، طب استنى جعدي عليك" يقول في سرعة: "لأ خليكي، إنتي مش في الميدان، أنا جيلك" أقول له: "لأ أنا عند ماسبيرو، متجيش عالميدان تعالى على طلعت حرب، حستناك

Twitter: @ketab_n

كمان نُص ساعة عند جروبي أُغلق الهاتف وأبدأ في المشي، من المستحيل أن أجد سيارة أجرة.. أمشي إلى ميدان طلعت حرب، بدأت الشمس في المغيب، الأعداد في ازدياد، قلبي يخفق وأنا واقفة أمام جروبي، أرى أبي يعبر الشارع في سُرعة، في ذات اللحظة أسمع طلقًا ناريًا، أجري مُسرعة إلى أبي الذي ينظر حوله باحثًا عن مصدر ضرب النار، أمسك بذراعه بسرعة وأجتذبه إلى الرصيف.. قبل أن نتكلم نجد شخصًا يجري في سُرعة مجنونة في اتجاه ميدان التحرير صارخًا: "اتنحى.. اتنحى.. اتنحى ننظر إلى بعضنا البعض، مين ده؟ مين اللي بيجري ومين اللي اتنحى؟ لا نفهم شيئًا، نتجه إلى جروبي، نجد أشخاصًا يحتضنون بعضهم البعض ويتكلمون في انفعال جنوني عن بيان قصير من النائب الحديث، ورئيس المخابرات السابق يُعلن فيه تنحي النظام عن منصبه وتكليف العسكر بالحُكم.. أتقافز على الأرض، ألتفت لأحتضن أبي.. أجده واقفًا على الباب، بعيدًا، يبتسم في ارتياح ويشير لي بيده.. وجهه يبهت تدريجيًا ويختفي.

Twitter: @ketab_n

33

أخرجت كل أدوات التنظيف من الدولاب الخشبي الذي يقبع تحت المرحاض، أخرجت المُطهرات والفوط الصفراء والصابون الذي أنظف به الأرض ومسحوق تنظيف الخشب والمُطهر القوي الذي أستخدمه لتنظيف المرحاض ووسائل تنظيف الزجاج.. أُفرغ أكياس القمامة الصغيرة المليئة بالقاذورات في كيس واحد كبير.. أتذكر أمي وأنا صغيرة وهي تطلُب مني أن أُغير كيس القمامة القديم بكيس نظيف وجديد، أتذكرني وأنا أفعل هذا في تأفُف وزهق.. أُخرج الكيس المليء بالقاذورات إلى صفيحة القمامة الكبيرة وأستبدل الأكياس بأكياس جديدة نظيفة وخاوية.. أخرجت كل العدّة التي أستخدمها لإزالة الوساخات من البيت.. رصصتها في نظام على مدخل المطبخ، أستعد لعملية التنظيف وأُشعل السيجارة الأولى.

ساد الصمت بيني وبين علي من جديد، شهر من الصمت، لا يوجد ما يقال.. هو تعيس، قلق ولا يغادر بيته، لا يريد أن يراني؟ لا أعرف، ولكني أفعل ما أفعله يوميًا في آلية، لا شيء يهم اليوم ولا

Twitter: @ketab_n

شيء يهم أبدًا.. يظهر علي مجددًا.. يظهر فترات قصيرة.. أخبره أنني متعبة، وأنني أريد أن أذهب بعيدًا.. لا يوافق.. لا يُريدني أن أذهب.. افعلي ما تريدين يا نادية، فقط لا تتركيني وتذهبي بعيدًا.. أنظر إلى سقف الغرفة.. بصراحة لا أريد أن أذهب بعد، وهو يريد أن يبقى بجانبي، أمشط له شعره الطويل، وأرسله بقبلة إلى العمل.. هو يريد الحُضن المقدس أن يمتد إلى الأبد، يسألني، وكيف الفراق وبيننا حضن عتبة الباب؟ نظل سويًا.. تعساء، يجمعنا حضن عتبة الباب الذي لا يهمنا شيء سواه.

أضع مسحوق تنظيف الخشب على الفوطة الصفراء وأجلس على الأرض، أُمرر الفوطة بقوة على الخشب، هناك الكثير من البقع، أعصر الفوطة جيدًا حتى لا يتعطن الخشب من الماء، أحُك الخشب بالفوطة حتى تؤلمني يداي.

أتذكر عندما عاد علي للظهور منذ أسابيع بعد أن اختفى لفترة، عاد كعادته، يقضي الليلة مهمومًا يستيقظ من النوم مبكرًا.. هي السادسة؟ ما زالت الدنيا ظلامًا، أفيق على حركته الهامسة.. يقول إنه ذاهب، وغالبًا لن يعود، صوته عال، وأنا أفزع من الصوت العالي.. لا يريدني أن أسأله: لماذا لن يعود، هو فقط لا يريد أسئلة.. لا يريد أن يرى سقف هذه الغرفة مجددًا.. كل الأشياء هنا تخنقه وتزيد من تعاسته.. ببساطة شديدة أدرت ظهري له وأكملت نومي، لم أصحُ على خبطة الباب العنيفة.. أستيقظ بعد ساعات لأُدرك أنه لم يكن كابوسًا.. هو ذهب ولن يعود.. أشعر ببعض الغضب، أقرر أن أخبره عن هذا الغضب،

Twitter: @ketab_n

أخبره أنه انتهى وأنه لا يهمني الآن وألومه على فيضانات الأكوان، على الزلازل والثورات المنقوصة والبراكين.. ألومه على كل ما فعله العالم من ذنوب وعلى كل تعاسات المحبين.. أجلس في مكاني لساعات لا أتنفس ولا أتحرك.. وأدرك أنها لحظة فراق أخرى.. الآن أنا وسقف الغرفة معًا، ولا شيء يهم سوانا.

التنظيف لا ينتهي، البيت غارق في القذارة، المرحاض به وساخات لا تزول باستخدام المنظفات العادية، أضع كمية كبيرة من المطهر على الفوطة وأضيف إليها بعض الجاز، أُفكر في "ميّة النار ولكنني أخاف أن تحرق يدي.. أكتفي بالمطهر والجاز وأدخل يدي حتى كوعي في المرحاض، أُنظف بأصابعي القاذورات التي تقبع في أماكن مستترة، ثنيات المرحاض لونها أصفر غامق، كأن الماء والصابون لم يمُر عليها منذ أشهر، أنظف البيت كثيرًا ولكنني لم أعهده أبدًا بهذه القذارة.. أصابعي تؤلمني من التنظيف ولكنني أستمر في حك السلك والفوطة في السيراميك الداخلي للمرحاض، رائحته تُزكم أنفي ومعدتي تؤلمني من الرائحة الكريهة ولكنني أسد أنفي بيدي الأُخرى وأُكمل ما بدأت في دأب.

مرَّت أيام طويلة منذ ذهب علي، أيام طويلة خانقة.. جهازي التنفسي لا يعمل بشكل طبيعي، لا أفعل شيئًا يُذكر سوى التحديق في سقف الغرفة.. حفرت جسدي داخل الأريكة وتيبست أطرافي من الاستلقاء على ذات الكنبة.. أشياء علي ما تزال في أماكنها، ملابسه مرصوصة في عناية على الرف الخاص به، فرشاة أسنانه في مكانها على رف الحمام.. قبعته الصغيرة

Twitter: @ketab_n

الحمراء في المكتبة، قصاصات الورق التي كُنت أتركها له في مكانها على البراد.. كل شيء في مكانه.. أصحو كل يوم لأتأكد أن كل شيء في موقعه.. وفي يوم ما، تأتيني رسالة من علي.، "وحشتيني يطلب أن يراني، يعود للحياة من جديد.. يتنفس بعد اختناق.. أذهب إليه، أتردد قليلاً ولكنني أذهب - بدأ المرحاض يعود للونه الأبيض الرائق، اللون الأصفر يزول في بطء - يقابلني علي في لهفة، لا أكاد أرى وجهه، يحتضنني طويلاً، توقف العالم من حولنا، لم أر الغرفة ولم أره، فقط هو يحتضنني.. هو الحضن الأجمل منذ لقائنا الأول.. وأنا أُغلق ذراعيّ عليه، أحتضن ضلوعه، أتلمس بيدي ظهره، كأنني أتأكد أنني بين يديه.. أدركت في ثانية واحدة أن تلك هي اللحظة التي ظللت أبحث عنها منذ خُلقت، في الحيوات الأخرى، في الحيوات الحالية.. في الأكوان الموازية، في الكواكب غير المأهولة.. هذه هي اللحظة.. وبالطبع لا يهمني أي شيء.. لا يهمنا أي شيء سوى هذه اللحظة.

وجدت أبو شبت مُجددًا في الحمام، يرمقني بنظرة شريرة ويجري في سرعته الجنونية، أضع الفوطة المليئة بالمُطهر فوقه وأدوس عليها، أفعصه على أرض الحمام وألقي الفوطة في صفيحة القمامة، هُناك حشرات كثيرة في الحمام، أجلس على الأرض وأمد سيقاني أمامي وأبدأ في حك الأرض بالفُرشاة، أسكب المُطهر على الأرض، الأرض قذرة للغاية، لن يُجدي معها بعض قطرات المُطهر على الأرض، أحتاج إلى كميات أكبر من المطهرات، انتهى نصف زجاجة من الجاز والمطهر واسودت

Twitter: @ketab_n

الفرشاة، وفسد سلك التنظيف، أُخرج فرشاة جديدة، أعرف البيت عندما يتسخ لهذه الدرجة ولديّ كل الاستعدادات ليوم النظافة، أستخدم الفُرشاة الجديدة على أرض الحمام وأنا أُشعل سيجارتي الخامسة، ملابسي أصبحت قذرة ومُبللة وتغمرها بقايا القاذورات، الجو بارد وأشعُر بأطرافي ترتعش من البرد، المطفأة بجانبي على الأرض، لا أريد أن تتسخ الأرض مُجددًا بأعقاب سجائري.

علي لم ينم في المرة الأخيرة، وأنا أرغي وأرغي وأرغي.. أصمت ساعات، ثم أنطلق فجأة في الكلام.. أخشى من عودة الصمت بيننا.. وهو لم ينطق بكلمة منذ أيام.. أمس، وفي باكورة الصباح يتصل في هدوء، ليقول إن القصة قد انتهت.. هي لم تكن قصة، كانت وهمًا، يؤكد في إصرار أنه لم يكن حبًا، وأنها قصة غير حقيقية، تعيسة؟ ربما.. يقرر ويؤكد أن القصة قد انتهت تمامًا.. انتهت بلا رجعة، وأنا أستمع بلا تعليق.. أسأل بعض الأسئلة القصيرة، وهو يؤكد أنه ذاهب، هذه المرة بلا رجعة.. يطلب منّي أن أذهب أنا الأخرى.. هو يتكلم في إصرار وأنا أُصِر على الاستماع، أُريد التفاصيل، أريده أن يخبرني أنه لم يحبني يومًا، وأنه لم يكن سعيدًا أبدًا.. وهو يقول كل شيء، ينتهي من الكلام، أنهض في هدوء.. أنظُر إلى صورتي في المرآة، أرى الدماء ترتفع إلى عيني، أشعُر بغليان، وأجد الأرض رأسية، أجلس لحظات على الأرض.. أُدلك رأسي بيدي، ثم أنهض إلى الرف، أضع ملابسه في حقيبته التي تركها في البيت، أذهب إلى البرّاد، أنتزع القصاصات وأثنيها في عناية وأضعها في الجيب الخارجي، أذهب إلى مرآة

Twitter: @ketab_n

الحمام، أنتزع فرشاة أسنانه من مكانها، قبعته الصغيرة الجميلة.. سوف أفتقد هذه القبعة بشدة.. أضع كل شيء في رفق في الحقيبة.. وأضع الحقيبة بجانب الباب وأرقد بجانبها، الأرض باردة، باردة ومُتسخة، أنتبه إلى اتساخ الأرض وأقرر أن لديّ يومًا طويلاً من التنظيف، وجهي في وجه الحقيبة وخدي يلامس الأرض، كم ساعة مرّت؟ لا أدري.. أغوص في الخشب.. يدي ممدودة بجانبي.. أُدرك الآن فقط أنها اللحظة الأخيرة.. أنام مجددًا.. أطفئ السيجارة السابعة – والأخيرة – وأستمتع بالأرض في سكون، غدًا سيكون يومًا طويلاً من التنظيف.

Twitter: @ketab_n

34

في الصباح لا تدخل الشمس إلى الشقة الصغيرة، يوجد شباك كبير بعرض الحائط ولكن الشمس لا تعبر زجاجه السميك أبدًا، بالخارج هناك مبان قديمة وعمارات بنيت في الثمانينيات، وحديقة لسفارة قبعت في نفس المكان منذ سنوات، ولكن لم أتبين أبدًا ألوان العلم القابع في فنائها.

السماء باهتة مثل وجه أبي في ثلاجة المستشفى، زرقاء أو بيضاء بلون رمادي مزعج، مخيفة أحيانًا، وأحيانًا رائقة وصافية وتبعث على الارتياح، تمامًا مثل وجه أبي الذي تلون بكل الألوان في لحظات معدودة أتذكرها كأنها البارحة، وأنا أحملق إليه قابعًا في الثلاجة منذ تسع سنوات، مخيفًا وأليفًا وحانقًا على الموت بعد مماته ومرتاحًا من هموم التعاسات التي لا تنتهي ومغتاظًا من كل ما لن يحضره من ثورات لم تكتمل.

لم أُكمل الثلاثين بعد، ذهب أبي في أعوامي العشرينية الأولى،

Twitter: @ketab_n

ذهب قبله بأشهر زين.. فعلت بدلاً منه الكثير، انكسر قلبي بدلاً منه مرة واثنتين وثلاثًا، مشيت في شوارع البلاد، رفعت صوتي الرفيع في التظاهرات، تقافزت فرحًا بعد سقوط نظام فاسد وافترشت الأرض بدلاً منك، ولم ترني ولم تر، ما حدث من معجزات غير مُكتملة كأنها رسائل من أنصاف رُسُل.. فقط ذهبت إلى حيث ذهبت في سكون وراحة.. تسع سنوات مضت، وقفت ساعات لا أستطيع حصرها في مطبخي، أعد الطعام وأنا أعرف أنك لن تأتي.. وضعت الطعام في أوانٍ كثيرة، وجلست أمامها أتكلم معك عن الثورات والاعتصامات والهزائم المُتتالية.. استمعت إلى صوتك في كل المواقف واهتز قلبي لرنين ضحكتك العالية عندما أرتبك وأُسيء التصرف.. رأيتك كثيرًا، رأيتك وأنت ترحل، رأيتك وأنت تنظر لي من فتحات الكفن المهلهلة، رأيتك تدُق بيدك جُدران التربة الضيقة، تزيح عظام الأموات من حولك لتخرج وتواسيني رحيل من رحلوا، تخرج فتجلس معي على الطاولة المعدنية بمطعمنا المُفضل، لنصمت سويًا أو لتوبخني على طيشي واختياراتي الغبية أحيانًا.. رأيتك في كل وقت وفي كل مكان تمسك بيدي وتربت عليها وتحتضنني خُضنًا لا يُفلتني وإن انتهى العالم.. تسع سنوات مضت في بُطء وقسوة على رحيلك.. وعشر سنوات على رحيل زين.. كُنت هُناك حين رحل زين وأنا في ربيع عشرينياتي لتطمئن أن قلبي ما زال ينبُض وأنني مازلت أتنفس.. ولم يكُن هناك أحد ليراني جُثة مزرقة منذ رحيلك.

وعندما يأتي المساء، لا يتغير لون السماء كثيرًا، فقط يصبح أكثر

Twitter: @ketab_n

غمقانًا وتعاسة، أضواء كثيرة تضوي في خلفية الشباك الكبير، أضواء تظهر وتختفي من بعيد، أضواء تبدو مُلهمة لمن يراها من الشباك الكبير، ولمن يقترب منها، يرى أنها أضواء اللافتات الكبيرة لأنواع الزيوت والسمن النباتي والمنتجعات السياحية التي تعدك بحياة أفضل، ولذا من الأفضل دائمًا الاكتفاء بالنظر إليها من بعيد.

أنهض مثل كل يوم من فوق كنبتي الصغيرة التي اتخذتها مأوى وملاذًا مُنذ تسع سنوات، تلك الكنبة التي لم أنهض من فوقها بإرادتي إلا عندما يُناديني صوت التظاهرات العالي.. أذهب لأتخيلك معي، كفي في كفك، أتمسك بك وتحاول أنت حمايتي من قبرك فلا تستطيع. الشباك يلاصق ظهر الكنبة فلا أضطر لمواجهة السماء التي تذكرني بوجه أبي كل يوم، كالعادة التلفاز "يوش"، إعلانات مزعجة عن منتجات لا يشتريها أحد، أو ربما تشتريها ربات البيوت في أوقات الفراغ، لا أعرف لماذا لا أغلق التلفاز قبل أن أنام.. أنهض لأجد علامات محفورة على جانبي وأحيانًا على بطني لأكتشف أنها أرقام جهاز التحكم الخاص بالتلفاز وقد التصق بي أثناء النوم. لماذا لم أغلق التلفاز قبل أن أنام؟ لا أعرف.

هو ذات الصداع الصباحي اليومي، ذات "القريفة" أنهض بعد ساعتين أو أكثر لأغسل وجهي وأسناني، أعد أقراص الفيتامين التي أحضرها معي من كل بلد أذهب إليه، قرص لشعري الذي يتساقط يوميًا، قرص للذاكرة والتركيز وقرص النشاط الساحر،

Twitter: @ketab_n

أبتلع الأقراص مع قرصي الصداع، وأضع قهوتي في الماكينة حتى تشم خلايا مخي رائحة البن وهو يختلط بالماء فأبدأ في التركيز على مضض.

لم أعد أعمل كثيرًا، استطعت منذ سنوات أن أقتصد وأدخر، استخدمت حيلاً كثر حتى أصل إلى أقل عدد ساعات ممكنة من العمل، ليس هذا بسبب الكسل، ولكنني اكتشفت منذ زمن عدم قدرتي على الارتباط بشيء، منذ متى أصبحت هكذا؟ منذ مات أبي؟ منذ تسع سنوات؟ كان القرار واضحًا منذ ودعته في طرقات القبر الضيق، لن أستثمر مشاعري ثانية في مخلوقات حية، اتفقت معه على ذلك في غضب عارم أمام ثلاجة المستشفى، وأنا ألومه على خداعه لي عندما تركني أتشعلق في وجوده وهو يعرف أنه لن يبقى طويلاً، أخبرته في هدوء وأنا أفك الكفن عن رأسه وعن قدميه أنني لست غاضبة منه، ولكنني مغتاظة وحانقة وأمثل الهدوء حتى لا أزيد همومه، أعرف أن أبي لا يحب التغيير، وانتقاله إلى هذا القبر الصغير حتمًا سيجعل خلقه ضيقًا وستتلاحق أنفاسه حتى يفهم رفاقه الجدد، أنه فقط يحتاج إلى حقنة كورتيزون وبعض موسعات الشعب حتى تعود أنفاسه إلى انتظامها.. لا أريد أن أزيد من همومه وعصبيته، ولذا أخبرته قبل أن أمتطي السلم الرأسي الذي يقود إلى التراب الخارجي أنني لست غاضبة، وأنني أذكي من أن أقع في ذات الغلطة مجددًا، لن يصبح شخص أو شيء محورًا لحياتي، لن أمضي عقودًا، لن أرتبط بأي كيان يصعب الاستغناء عنه، اتفقت معه على ميثاق الحماية.. كل شيء إلى زوال يا أبي، فأنت قد ذهبت ولا شيء باقيًا بعد ذهابك.

Twitter: @ketab_n

أستيقظ اليوم مثل العادة في سأم، في ملل، في سكون، أفتح بريدي الإليكتروني.. أتأمل الرسالة التي تقبع في الصندوق الإلكتروني منذ شهر.. حان الموعد أخيرًا.. اليوم هو الأخير.. أطبع الرسالة في هدوء وأضعها فوق حقيبة السفر الكبيرة بجانب الباب، أُدخن سيجارتي السابعة في داب وأطفئها لألتقط سلسلة المفاتيح وأُخرج منها مُفتاح شقتي الصغيرة، أرتدي ملابسي وأحمل كُل شيء في يدي وأستقل المصعد، يُقابلني جاري ويبتسم ابتسامته المرتابة التي يرمُقني بها منذ تسع سنوات منذ سكنت البناية.. أضع وجهي في الأرض وأُراقب حذائي البنفسجي.. أقول له وأنا لا أنظر إليه قبل أن يصل المصعد للدور الأرضي بثوان: "أنا بشتغل مترجمة، بترجم كُتب، وماشية النهاردة من البيت، أشوف وشك بخير ينظر لي في استغراب، يبتسم ويشد على يدي في قوة: "حتوحشينا يا آنسة نادية"، أخرج من المصعد، أُسلم المُفتاح لحارس العمارة وأستقل سيارة أجرة ذاهبة للمطار – أم كلثوم تُغني في الراديو، إنت أقرب مني ليا حتى وانت بعيد عليا أو معايا – أتفقد باسبوري وتذكرتي إلى رضوى.. ألصق وجهي في زجاج نافذة سيارة الأجرة وأرمق الدُنيا خارج الزجاج، رُبما نعود إليها مرّة أُخرى، في يوم ما، رُبما نعود لنبدأ من جديد.

Twitter: @ketab_n

عندما يرحل من أحب يترجم هذا عقلي الباطن
أنه قد مات.. فهو لن يعود.. والذاهبين إلى الموت
لا يعودون أبدًا.. لهذا يقوم عقلي بدفسهم
في منطقة مظلمة هي أقرب للتربة،
الذاهبون لا يعودون،
والثلج قد ذاب تماما عن الدجاجة
ولابد أن أبدأ الطهو حتى لا تفسد.

@ketab_n

الغلاف: أحمد اللباد

ميريت